د. أحمد القندوسى

هذيان قلم دكتور
بين الخيال والواقع

قصص

صدرت الطبعة الأولى فى أكتوبر ٢٠١٩

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	هذيان قلم دكتور بين الخيال والواقع
المؤلف	د. أحمد القندوسى
التصنيف	قصص
رقم الإيداع	١٩٠٠٩ - ٢٠١٩
الترقيم الدولى	٠-٨٧-٦٧٢٦-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإصدارالداخلى	٥٠٥ الطبعة الاولى سبتمبر ٢٠١٩
عدد الصفحات	١٠٨ صفحة
تصميم الغلاف	مؤسسة النيل والفرات

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع

ALNILE WAALFOURAT

أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017

ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي

رئيس مجلس الإدارة

ناجى عبد المنعم

رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572

عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018

هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901

nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات

alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat

المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – امام سنتر الـ13 – عقار 304

مقدمة

بتشجيع من أخي وصديقي سعادة المستشار المحامي القدير والأديب المصري الفذ شحات خلف الله ، ومن إنسان أعزه وأحترمه وهو الشاعر المصري الخلوق والنبيل وهو إسم على مسمى أخي نبيل نجاح .

ولن أنسى أخي عبد الرحيم عازم الذي رافقني طوال مسيرتي في هذه الكتابة فكان القارئ والناقد والمشجع في نفس الوقت. وأكثر من هذا كان المصحح اللغوي لكونه أستاذ اللغة العربية لسنين طويلة وصاحب ثقافة عالية لما راكمه من قراءة لروايات عالمية

كلهم كانوا قنديلا يضيء الطريق لقلمي الذي ولأول مرة يسلك هذه الطريق الصعبة التي كثيرا ما حطمت أقلام أناس قبلي لم يسعفهم الحض أن تكون لديهم صحبة مثل أصحابي

نعم إنها البداية والخطوة الأولي إن لم أقل الأمتار الأولى فوق ماء المحيط . وأتمنى أن لا تكسر قلمي أول موجة. هي قصص أو أفكار تقاسمتها مع القارئ بلغة سهلة وبسيطة حتى يقرأها كل من لديه رغبة في القراءة . لم ألتزم بفن الرواية أو القصة لأنني كنت عفويا وكان هدفي الأول أن أوصل أفكاري إلى القارئ وليس نجاحي ككاتب،

ولولا أخي أستاذ ناجي عبد المنعم الذي فرض علي أن أضيف كلمة قصص لما فعلت . لأنني لا أعرف في أي خانة سأضع هذه الأفكار . وعلى أي حال أتمني للقارئ رحلة متعة وهو يسافر بين سطور هذه القصص التي تطرقت فيها لمجالات عدة وهي أول تجربة لقلم عجوز مثل قلمي علمته السنين أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد .

الدكتور أحمد القندوسي

القبلة بذوق الكاراميل

يوم واحد شتنبر، وهو أول يوم دراسي في جامعة الصداقة بين الشعوب باتريس لومومبا.

كان ذلك سنة ١٩٨٥ وفي هذا اليوم الذي ما زلنا نحتفل به كيوم العلم في روسيا يوما استثنائيا بالنسبة لإلياس ويوليا.

بينما هو جالس في الصف الثالث من الأمام كانت يوليا تجلس خلفه بصفين يستمعان لكلمة رئيس الجامعة المرحوم ستانيس وهو يرحب بالطلبة الجدد والقدامى من جميع الدول الذين أتوا إلى هذا الوطن من أجل طلب العلم .

استدار الياس ليبحث عن صديقه فإذا بعينيه تلتقيان بعيني يوليا الشقراء ذات العينين الزرقاوين وبرموش كسهام تأسر قلوب الناضرين.

ابتسم لها بينما هي لم تعر اهتماما لبسمته ضانة إنه يبتسم لغيرها، لكن حركات عينيها خانتها وهي تحاول إن تصوبهما نحو المنصة حيث يجلس الرئيس والعميد وكذلك أساتذة الكلية التي ينتسبون إليها .

استدار الياس ليأخذ موقعه الصحيح كي لا يحرجها ويحرج الآخرين الذين يجلسون وراءه .

وقف الجميع يصفق لرئيس الجامعة ولعميد كلية الإقتصاد التي كانا ينتميان لها بعدما ألقيا كلماتهما.

وقبل أن يهم إلياس بالخروج ألقى نضرة إلى نفس الكرسي الذي كانت تجلس عليه يوليا فلم يجدها هناك.

خرج إلى بهو الجامعة مع أصدقائه ليشرب سيجارة وليتناول قهوته الصباحية قبل أن يلتحق بالقسم الذي ينتمي إليه لمباشرة السنة الدراسية.

اقتحم الفصل ليأخذ مكانه في الصف الثالث عن اليمين ويبدأ في تصفح جريدة كامسامولسكيا قبل أن يجتمع الطلبة ويدخل أستاذ العلوم السياسية.

لم ينتبه للوقت حتى خاطبه الأستاذ: أيها الشاب أترك جريدتك لما بعد الدرس وانتبه.

إعتذر الياس ومثل لأمر أستاذه وقد احمرت وجنتاه بالخجل ، فإذا بصوت نسوي عذب وهو يضحك خلفه.

لم يستدر كي لا يغضب أستاذه ، بل تجاهل ذلك وتابع الدرس.

عندما انتهى الأستاذ من درسه استدار إلياس ليوبخ صاحبة الضحكة المستهزءة.

أول ما وقعت عيناه على الطالبة حتى نسي كل الكلام الذي كان يستجمعه ليقوله لها وهو غاضب من تصرفها ليستبدل الكلام بالإبتسامة.

هنا ردت عليه بابتسامة مثلها . لكن ابتسامتها كانت سهم يخترق العين والصواب ليستقر في أعمق مكان وأنبل عنوان للحب - قلبه

كان إلياس طويل القامة ذو شعر رطب أسود اللون وبعينين بنيتين.

كان جسمه جسم رياضي لأنه وقبل أن يقدم إلى موسكو كان بطلا للجودو في بلاده .

خرج الياس ليذهب إلى المكتبة ليقتني كتب المقرر للسنة الأولى في كلية إقتصاد .

وهو واقف في طابور الطلبة ، اقتربت منه يوليا لتطلب منه أن يتركها تمر قبله الشيء الذي قبله الياس وبدون تردد بل وبكلمة لطيفة تعبر عن رقي أخلاقه وهي : السيدات أولا.

ابتسمت وهي تشكره ، وكانت تلك الإبتسامة بالنسة لإلياس بمثابة قبلة .

أخذت كتبها ثم انصرفت وهي تقول باللغة الروسية شكرا إلياس .

رد عليها بالإبتسامة فقط لأنه كان مشغولا مع السيدة التي تمده الكتب وتطلب منه أن يتصفحها للتأكد من صحتها.

بعدها ذهب إلياس إلى غرفته بالحي الجامعي حيث أصدقائه ليقضي آخر الأسبوع برفقتهم ودون أن يعير اهتماما لما حصل وكأنه حدث عابر ليس إلا .

صباح يوم الإثنين بعد تناول الفطور اتجه نحو الكلية ليستأنف دراسته كباقي الطلبة .

دخل إلى الفصل وجلس في نفس المكان ينتظر أستاذ التاريخ وهو يتصفح كما العادة جريدته وينتظر قدوم الأستاذ . حصل نفس الشيء معه وكأنها إعادة لمشهد في مسرحية ما. لكن هذه المرة لم تكن هناك ضحكة إستهجان مما أثار فضوله ليستدير ويبحث عنها.

بينما هو يستدير رأته يوليا لتطلق ضحكة بصوت عال ما أغضب الأستاذ ليطردهما هما الإثنين من حصته.

طبعا غضبا من تصرف الأستاذ، لكنهما وفي قرارة نفسهما كانا فرحانين لأنهما خرجا معا .

وهما ينزلان على الدرج ، عزم الياس يوليا على فنجان قهوة الشيء الذي قبلته بسرور وهي تقول له لا عليك سأنقل الدرس من عند صديقتي وسأعطيك نسخة منه.

كانت قهوة لا تشبه تلك التي شربها الياس من قبل لا من حيث المذاق ولا من حيث التوقيت.

فالكافيتيريا كانت شبه فارغة لكون الطلبة كلهم كانوا في الأقسام.

أما المذاق فكانا يتبادلان الفنجان بغير إرادتهما لأنهما كان يحدقان لبعضهما وهما يمدان أيديها إلى فنجانهما حتى انهما مرة بدل ان يأخذا الفنجان تشابكت أصابعهما.

احمرت وجنتا يوليا لتخطف يدها لتقلب فنجانها وتصب القهوة على فستانها الأزرق الفاتح.

ارتبك الياس وهو يحاول أن يهدئها : لا عليك لا عليك، سآتيك بالماء الساخن لتزيلي لون القهوة من على فستانك.

وهو يحاول أن يزيل بمنديله وبالماء الساخن بقعة القهوة، نسي انها توجد على صدرها وهي أيضا لم تعر اهتماما لهذا عمدا أو سهوا حتى لمست اصابعه نهديها ليلفت ذلك انتباههما مرة واحدة ويكف عن ذلك وهو يردد عفوا عفوا.

ابتسمت مرة أخرى وهي تقول له وان مسحت لون القهوة البني من فستاني ؟ فكيف ستمحي لون عينيك البنية من قلبي؟ قالتها وهي تضحك بشيء من الإستهزاء وجدية في عينيها . ضحك هو أيضا لكن الرسالة كانت مشفرة لقلبه الذي عشقها من أول نظرة ومن أول يوم رآها فيه .

دنا منها وقلبه يخفق بسرعة لم يعهدها وكأن المسافة بينه وبينها كيلومترات وقد قطعها جريا لتلتقيا شفتاهما لأول مرة.

كان طعم تلك القبلة غير عادى وليس له مثيل بالنسبة لالياس . فلأول مرة يتذوق قبلة فيها مزيج من ريق يوليا بالقهوة ومذاق فانيلا الاتي من أحمر الشفتين الذي كانت تضعه على شفتيها الورديتين .

بقي مذاق تلك القبلة في فم الياس إلى الابد ولم ينساه إلى يومه هذا .

كانت أول قبلة لبداية حبه الأول والأخير. مضت شهور وهما يتعاشقان ويدرسان مع بعض ولا يفترقان الا نادرا.

انتهت السنة الدراسية ليفترق كل الى وجهته حيث سيقضيان عطلة الصيف في أماكن مختلفة.

فالياس غادر موسكو ليعود إلى عائلته التي اشتاق إليها والمقيمة في طنجة في أقصى شمال المغرب المطلة على البحر الأبيض المتوسط والتي لم يرها لمدة سنة ، اما يوليا فقد ركبت القطار المتوجه إلى اوديسا المدينة السوفياتية المتواجدة على ضفاف البحر الأسود.

كان ذلك اليوم حزينا وهما يتوادعان في محطة القطار كييفسكي فاكزال بحيث كانا يتعانقان ليهديا بعضهما البعض قبلة وداع ، وكادت دموعهما تكون دمعا واحدا فوق شفتيهما حتى اقلع القطار ليبتعد عن أعين الياس لكن ليس عن قلبه .

عاد الياس الى بيته وهو حزين رغم انه كان سيسافر هو الاخر ليلتقي عائلته في اليوم التالي .

قبل أن يفترقا اتفقا ان يهاتفا بعضهما كل اسبوع في وقت محدد وهو الوقت الذي ستنتظره فيه يوليا في بيت ابويها لترد على الهاتف هي وليس غيرها.

مر عشرون يوما أو أكثر بقليل ولم يتبق سوى أسبوعا ليعودا الى موسكو ويستأنفا دراستهما ويلتقيا مجددا بشغف وشوق .

كان ذلك اليوم ممطرا وغائما كغير عادته في ذلك الوقت من السنة في مدينة طنجة وهو اليوم الذي اتصل الياس بحبيبتة لكن دون أن يجدها هذه المرة في انتظاره وحتى دون أن يرد عليه أحد.

بعد محاولات عدة وبدون فائدة قرر الياس الذهاب إلى الشاطىء ليتمشى قليلا وهو يعد الأيام التي بقيت له ليحضن حبيبته .

كان البحر هائجا والسماء حزينة يكسيها سحاب داكن . كان صوت الموج وضجيج صوت البطرس يعزفان سيمفونية حزينة مما جعل قلبه ينكمش بداخله .

عاود الإتصال مرات في الأيام التالية دون جدوى مما جعله يظن انها عادت إلى موسكو قبل الموعد المحدد. ففي تلك الفترة لا يمكن أن تسافر في اليوم الذي تختاره أنت بل حسب الأماكن الفارغة في القطار فالكل يعود لعمله ودراسته بعد نهاية العطلة.

في يوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس وهو اليوم الذي كانت طائرة ايروفلوط السوفياتية تقلع من الدار البيضاء إلى موسكو والتي استقلها الياس رفقة أصدقائه ليصل في اليوم الموالي صباحا.

استقلوا سيارة أجرة لتوصلهم إلى الجامعة حيث يدرسون ومسكنهم .

أول ما وصل وقبل أن يفرغ حقيبته انطلق مسرعا لغرفة حبيبته يوليا ظانا انها ما تزال نائمة. طرق الباب مرات ولم يفتح أحد ، فقرر أن يذهب إلى كافيتيريا الموجودة في مبنى الجامعة ظانا انها هناك مع أصدقائها يتناولون الفطور.

أول ما حط رجليه في بهو الجامعة حتى وقعت عيناه على صورة يوليا المعلقة في المدخل الرئيسي وبحزام أسود حولها وقد كتب تحتها: افتقدنا أحد طالباتنا الشجاعة التي توفيت غرقا وهي تحاول ان تنقذ طفلا من الغرق يوم ١٩ أغسطس في البحر الأسود.

وقف الياس امام الصورة والدمع ينزل على خديه ليتذكر ذلك اليوم المشئوم الممطر وصوت البطرس الممزوج بصراخ الموج والذي كان نفس اليوم الذي أغرق فيها البحر الأسود حبيبته ، وكأن السماء والموج والبطرس جاءوا ليعزوه في أول وآخر حب له ولتبقى تلك القبلة ذات ذوق الكاراميل والذي لم يعرف لا قبلها ولا بعدها مثيلا أجمل ذكرى .

اللوحة

أخذت ريشتها وجلست على الأرض وهي تبحث عن أوراقها للرسم في محفظتها.

كنت انظر إلى تلك اللوحات الرائعة التي رسمها فنانو القرون الوسطى وحقبة النهضة في أوروبا ثم القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في متحف تريتيكوفسكي في موسكو .

كان عمري آنذاك حوالي سبعة وعشرين سنة وكنت طالبا في كلية الطب .

استوقفتني لوحة لرسام إيطالي لإمرأة شبه عارية وهي تسقي السكارى النبيذ بأقداح من الطين.

كانت تلك الشابة بجنبي ترسم اللوحة التي أنظر إليها وتخطف نظرات من حين لآخر لقسمات وجهي .

توقفت لبضع دقائق ثم انسحبت إلى لوحة أخرى وانا ابتسم مودعا تلك الشابة التي كانت ترسم بجنبي وتراقبني لافهمها انني لاحظت اهتمامها بي وانا اتفحص تلك اللوحة . لم أخطو كثيرا حتى نادتني : سيدي، سيدي وهي تقترب مني .

التفتت فوجدها هي تناديني .

ظننت انني ضيعت شيء ما بقربها وتريد ان تعيده لي ، فعدت اليها مستفسرا : نعم آنستي، ماذا ؟

ابتسمت ثم قالت : أيمكن ان اسألك سؤالا؟

قلت نعم طبعا تفضلي.

قالت ماذا وجدت في هذه اللوحة لتجذبك اكثر من الأخريات؟

ألأنها امرأة جذابة ؟

ظننتها تستهزىء بي .

ولما هذا السؤال آنستي ؟ أتظنينني سطحي لهذه الدرجة ؟ أجبتها بشيء من العتاب .

بل لأنك كنت تنظر إليها ليس كباقي الزوار الذين مروا قبلك .

آه فهمت - أجبتها ، ثم قلت : اللوحة بحد ذاتها لم تجذبني كثيرا ، لأنها لم تكتمل . لكنني وجدت فيها قصة لطفلة أراد بها القدر ان تكون شيطانا وسط أجساد محطمة لم تترك فيهم الحياة سوى افواها تحتسي النبيذ لينسوا واقعهم الذي ينتظرهم في الصباح وهم لا يلاحظون حتى جمال تلك الفتاة امامهم .

فالرجل ان تغاضى عن جمال المرأة من أجل أن يغرق كل مشاعره في قدح من الشراب ، فمعناه ان قلبه وروحه ميتان . لذا قلت لك ان اللوحة لم تكتمل .

وماذا كنت انت رسمت مكانها سيدي ؟

أنا ؟

نعم سيدي انت .

اقول لك ولا تستهزئي مني؟ فأنا لست رساما بل طالبا في كلية الطب .

اعدك انني لن استهزىء منك ، فقط قل لي.

كنت رسمت بدل المتشردين المدمنين هياكل عظمية ، ومكان الشابة التي تسقيهم شيطانا بصورة امرأة قبيحة كالحياة التي عاشوها ، فهم حتما لا يفرقون بين تلك الطفلة والشيطان لأنهم بلا قلب ولا روح .

نظرت الي الرسامة الشابة بتعحب، ثم طلبت مني رقم هاتفي وعنواني .

طبعا اعطيتها ما تريد ولم اسأل حتى لماذا.

بعد ستة شهور، تلقيت دعوة منها لأحضر حفل تخرجها من المعهد القومي للرسم وهي حاصلة على أحسن مركز بين المتخرجين بلوحة مطابقة لما حكيت لها في المتحف.

وأول ما رأتني أخذتني بيدي لتقدمني إلى مدير المعهد وأساتذتها وهي تقول لهم هذا السيد هو من اعطاني فكرة اللوحة.

أحرجتني شيئا ما وخاصة عندما قال لي أحد الأساتذة: انت يا سيدي يجب أن تدرس مكاننا الرسم . طبعا كان هذا لطفا منه ومجاملة ، لكنني اجبته بكل تواضع : أفضل ان اعيد رسم الإنسان وارممه من الداخل سيدي ليكون صالحا لمجتمعه ولا أحب أن أتفرج عليه وارسمه وهو ينتحر .

عندما تصلي الحيوانات

كانت تأتي بعد كل صلاة العصر إلى حائط ذالك المسجد الصغير بين منازل فاخرة في حي راقي من احياء الدار البيضاء وبيدها طعام للقطط والكلاب الضالة.

لم تكن تأتي لتصلي لأنها ليست بمسلمة، لكنها كانت تأتي لتطعم تلك الحيوانات المهجورة أو المنبوذة . تطعمها كل يوم وتمسح على رؤوسها وهي تتحدث معها وكأنها أطفالها، وبعدما تأكل وتشبع تقبل يدها بألسنتها ثم تنصرف لتترك السيدة في قمة السعادة.

المصلون والإمام وحتى السكان الميسورون الذين يسكنون بالجوار كانو يشمئزون من المنظر ويخاصمون السيدة التي كانت تجمع لهم النجسة قرب مسجدهم الذين كانوا يتخذونه مكانا للقاءات والتباهي أمام بعضهم البعض اكثر مما هو مكان للعبادة.

بعد كم سنة بدأ المصلون يموتون واحدا بعد الآخر والأحياء يودعونهم ويدفنونهم فبدأوا ينقرضون شيئا فشيئا . وأما الشباب فلم يعودوا يهتمون لا بالمسجد ولا ببعضهم البعض ، بحيث ان الأموات من كبارهم بدأوا ينعونهم بعدد قليل من افراد العائلة المقربين والفرحين لما سيرثونه من ثروة .

ذات يوم وبعد مرض عضال توفيت السيدة العجوزة فإذا بكلاب الحي والقطط يجتمعون أمام بابها مكونين صفوفا ويصدرون اصواتا حزينة وكأنهم يودعونها إلى مثواها الأخير بصلوات الحيوانات وهم يسبحون لله على روحها التي انتقلت الى خالقها وهو الذي سيقرر مكانها بعد موتها.

اما الكلاب والقطط ، فبعد موت الإمام استولوا على المسجد ليتخذوه مكانا للسكن والعبادة ، لكن عبادتهم هم وليست عبادة الأغنياء .

وفي آخر كل صلواتهم كانوا يترحمون على السيدة التي كانت تطعمهم.

لا تحكم على أحد بمظهره

دخل سيد في عقده الستين إلى قاعة الإجتماعات فوقف كل الحاضرين وهم يصفقون له الا ذلك الرجل الذي يرتدي ثيابا بالية والجالس في زاوية القاعة.

قصده رجلان ليقولا له قم وحيي الضيف فهو سيدك ايها الأحمق

ابتسم الشيخ ثم اعتذر متداعيا ان رجليه مريضتان لا تتحمل جسده .

أخذ الرجلان بيديه ثم اوقفاه وهم يطلبون منه التصفيق.

ضحك بصوت عال وهو يقول: بأي أياد سأصفق وانتما تشدان على يدي؟

انتبه اليه الحاضرون وبدأوا في الضحك، وحتى الضيف المهم بدأ يضحك بهيستيريا.

امر بتركه وحاله فاجلسوه في مكانه وهم يراقبون ماذا يفعل بينما الزائر المهم يلقي كلمته.

كان الشيخ يصحح أخطاء لغوية للشخصية ويدونها في ورقة قديمة وهو يبتسم.

عندما انتهى الضيف من كلمته وقف الحاضرون ليصفقوا مرة ومرة ويهتفوا باسمه ، وقف العجوز ثم تقدم بخطى ثابتة ليصل إلى الشخصية التي كان الحضور يتملق له ليمده تلك الورقة القديمة مثل سنه وقد دون عليها كل الأخطاء اللغوية التي ارتكبها الرجل المهم .

وهو يتجه إلى الباب لحقه رجل كان يقف بجوار الشخصية وهو يصرخ كيف تجرؤ أيها المعتوه على تصحيح كلام سيدك؟ وهو يأمر الحراس بأخذه إلى السجن حيث ستعاد تربيته ليكون من الطائعين وليس من الناقدين، استوقفه الرجل المهم ليقول له : اتركه ينصرف . ألا ترى أنه الأخير من تلك الطينة التي انقرضت؟ اجعلوه إذا في الشارع معتوها وفي المجالس احمقا وسوف يجن أو ينتحر .

استدار العجوز إلى الرجل الشخصية ليقول له: لو جعلت مني ما تريده فإنك ستكون حارسي . فكيف لك ان تكون حارسا وسيدا لهؤلاء الذين يصفقون لك ؟ ثم انصرف .

سوء الظن

ركبت المترو وسط المدينة المتجه إلى محطة الجامعات وسط موسكو .

كانت حاملا في شهرها الخامس أو السادس .

كل الأماكن كانت ممتلئة ولا كرسي شاغرا . إتكأت على حاشية من حديد ثم مدت يدها إلى عمود بجوار الباب كي لا تقع عند توقف القطار.

كان معظم الراكبين منشغلين في قراءة الكتب أو الجرائد الا شابا كان يضع نظارات سوداء ينظر اليها بإستمرار حتى انها انزعجت بنظراته ثم استدارت لتوجه وجهها إلى النافذة .

وكانت كل مرة تنطق بكلام جارح للشاب والناس تلمحه بنظرات الاشمئزاز والتحقير .

اشعرت السائقة المسافرين بالمحطة القادمة ، فإذا به يأخذ عكازه ويتجه نحو الباب وهو يتحسس باب الخروج ويطلب السماح من كل الناس الذين يلمسهم في طريقه بعكازه .
هنا وقف عجوز ليقول كلنا عميان وهو الوحيد الذي يبصر .
الا تستحيون وتتركوا مكانا لسيدة حامل أيها الجهلة المثقفون فالأدب ليس في الكتب بل في التربية ، هكذا علمنا أجدادنا .

صرخة طفل من قارب الموت

كان أسامة في عامه الثاني عشرة من عمره، وكان معروفا لدى رواد الملاهي الليلية المتواجدة على الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط وبالتحديد في مدينة طنجة.
كان يتردد على تلك الأماكن ليطلب من الزبائن السجائر وبعض النقود ليستطيع العبور إلى أوروبا ، الجنة الموعودة للطفولة كما كان يحلو له أن يقول .
فبالنسبة له - البحر المتوسط هو الصراط وان وجوده هناك فدية لخطيئة ارتكبها أبويه حيث انجبوه في وطن تكون فيه الطفولة قربانا للتخلص من ذنوبهم .

كان دائما يتكلم مبتسما كي يثير انتباه المارة وخصوصا السكارى منهم ليلا . فالسكارى والمومسات هم من كانوا أسخياء معه لأنهم اقرب من طبيعة الإنسان دون عقد العادات وممنوعات الدين التي تجعل المجتمع يحكم على الإنسان ليس كإنسان بل كهوية وهو ابن الزنا كما يسمونه في المدينة ، والحكم هنا واضح طبعا

راكم أسامة المبلغ المطلوب ليركب قارب الحراكة ليعبر إلى الضفة الأخرى واتجه إلى مكان الموعد حيث تجمع المرشحون للعبور تلك الليلة.

بعد الساعة الواحدة صباحا من ليلة عيد الأضحي حيث مراقبة السواحل تكون شبه منعمة ، وصل رجلان على متن زورق ليقولا لهم لا تحملوا معكم أي شيء حتى لا ينقلب الزورق بنا وسط البحر. فأنتم لا تحسنون العوم ستهلكون لو حصل ذلك .

اتجهوا نحو الزورق وانطلقوا يقارعون الموج الذي كان نسبيا غير مرتفع ، لكن ما إن ابتعدوا عن الشاطىء بحوالي خمسة كيلومترات حتى بدأ البحر في الهيجان وبدأ الموج يرتفع ليقذف بالقارب إلى أعلى السماء وينزل نصف فارغ من العابرين وهو يبتعد بسرعة البرق . طبعا لا مجال لإنقاذ الغرقى فالوقت والموج لا يرحمان .

ومن بين الذين قذفت بهم الأمواج كان أسامة الذي كان نحيفا كالسهم لكنه وبحكم طفولته التي قضاها بجوار البحر يتقن السباحة وهذا هو الشيء الوحيد الذي علمه له وطن الخطيئة.

انطلق نحو أضواء بعيدة دون أن يلتفت إلى الوراء وكأنه اعتق من النار بشرط أن يقطع إلى الجنة سباحة.

كان يردد كلما أنهكه الموج والبرد جملتان. الأولى : لا تستسلم يا اسامة بعد اثنا عشرة عاما من العذاب.

والجملة الثانية : انت ابن الزنا هناك فكن ابن الحرية هنا ، فالذل وراءك والكرامة أمامك .

كان الموج اقوى من جسمه النحيف حيث كان يحمله بعيدا عن تلك الأضواء المقابلة لوطن فر منه كذنب من ذنوب مجتمع لا مسؤول وكله امل ان يغسل تلك الصفة بماء البحر ليعبر وهو انسان وليس ابن الزنا .

كانت الأمواج تقذف به إلى عرض المحيط حتى انه نطق الشهادة ثلاث مرات ثم استلقى على ضهره مستسلما وتاركا للقدر إختيار الحياة أو اللاحياة لطفل يصرخ وسط امواج وعيناه تدمعان وهي شاخصة في السماء الممتلئة بمصابيح النجوم وكأنها تقول له عيد ميلاد سعيد ايها الطفل الحر ثم غاب عن الوعي.

لم يع كم مر من وقت حتى سمع ضجيج الناس يتحدثون لغة غير معهودة ولم يسبق له ان سمعها وهو يخرج من غيبوبته فوق سفينة عملاقة.

للحظة ظن نفسه في الآخرة وهو يسترجع وعيه ويسمع كلاما وكأنه ليس بكلام اهل الارض.

عندما فتح عيناه وجد حوله ممرضة شابة في الأبيض وبعينين اسيويتين وهي تبتسم وتمسح بيدها على شعره المبلل.

كانت تتكلم بالإنجليزية وبلكنة غريبة شيء ما وتناديه ببوي .

راقه اسم بوي فعلى الأقل ليس ابن الزنا كما كانوا ينادونه هناك

أول ما وصل الى مرفأ اوساكا باليابان سلمه القبطان الى الشرطة لتقيله إلى المركز للبحث معه عن هويته .

أول سؤال وجه إليه: ما اسمك فلم يستغرق الجواب وقتا كثيرا حيث أجاب: بوي.

ومن أين انت ؟ سأله الشرطي .

من وطن يعاقب فيه الطفل مكان الأبوين على ذنوبهما . وانا واحد من تلك الذنوب .

من وطن تغرب فيه الشمس والحياة وأنا اريد ان أكون الشروق وبداية الحياة .

ابتسم الشرطي لإعجابه بذكاء بوي فأخذه إلى مأوى المتخلى عنهم ثم ليتبناه بعد ذلك ليجد نفسه وسط الملائكة يدرس ويسكن ويلعب الرياضة ليتخرج بعد سنين مهندسا لصناعة السفن عسى ان يساهم في إنقاذ أطفال ظلمت وعذبت على الأرض وهي بريئة

<u>القصة الخيالية</u>

جمهورية الحيوانات في مدينة هوموسابنس

كان الروبيو متشردا يصول ويجول شوارع مدينته جنوب البحر الأبيض المتوسط وخاصة وسط المدينة حيث تكثر الحركة وتكثر الدكاكين والتجارة .

كان الروبيو يمشي شبه عار وبشعر طويل ورجلين حافيتين لكنه كان دائما يحمل معه كتابا أو جريدة باللغة الفرنسية.

كان كلما اقترب من دكان أو شخص يطردونه مشمئزين من مظهره الوسخ .

لكنه كان لا يبالي لذلك بل يأخذ مكانا في حديقة وسط الشارع ويجلس على كرسي خشبي ليقرأ كتابه أو جريدته ، حتى جاءه ذات يوم كلب ضال ليجلس بجنبه وهو يتمعن في قسمات وجهه التي كانت تتفاعل مع القصة التي كان يقرأها

ادرك الروبيو ان الكلب مثقف اكثر من الناس الذين يعيش بينهم او ربما كان يعيش مع انسان مثقف والظروف جعلته يتوه في شوارع المدينة مثله .

بدأ الروبيو يقرأ بصوت عال كي يسمعه الكلب الضال .

تكرر ذلك أسابيع وشهور، حتى توطدت صداقتهما وصارا لا يفترقان .

وبدأت الكلاب الضالة تجتمع من حولهما كل مساء في الحديقة ليطعمها ويقرأ لها القصص والكتب وكان صديقه الأول يترجم للكلاب فحوى الكتب والجرائد.

استمر ذلك شهورا وسنينا ، حتى ذلك اليوم .

كان يوم الأحد من شهر مارس حين قرر الروبيو ان يغسل وينضف كل الكلاب ويحلق لها ويفعل نفس الشيء بنفسه ثم يذهب للتنزه والمشي في الشارع محترمة الإشارات وقوانين المرور، وأكثر من هذا كانت تنظف الشارع من القمامة.

كانوا يمشون منظمين ومنتظمين وفي أعناقهم قلادات بأسمائهم

كان الروبيو يمشي امامهم أنيقا ويعزف على الجيتار بينما الكلاب الأنيقة تمشي بنظام وراءه وهي تصدر أصواتا كالغناء .

تعجب سكان المنطقة الذين اعتادوا على رؤية الروبيو متسخا والكلاب الضالة تنهش النفايات.

لم يتوقف الحدث عند هذا بل تفاجأ اصحاب المحلات التجارية ذات صباح من نظافة الشارع وأمام كل محل تجاري كلبان يحرسانه.

كان الروبيو وأصدقائه الكلاب يحرسون الشارع كل ليلة وتحرس المحلات التجارية من اللصوص ، وفي النهار ينظم سير السيارات والراجلين بطريقة جميلة .

مما جعل المدينة تشتهر وتمتلأ اكثر فأكثر بالسياح حتى ان تجار الحارة غيروا سلوكهم مع الروبيو بحيث اقترحوا عليه ان يمثلهم في مجلس المدينة ، الشيء الذي رفضه لأنه حسب قوله من رفضوه كاستاذ جامعي لا يمكن ان يجلس معهم في الاجتماعات لحل مشاكل الناس ومستواهم الثقافي لا يرقى حتى لمستوى ثقافة شعب الكلاب الذي يترأسه.

لما سمع الخبر والي المدينة ، غضب ولم يعجبه ما سمعه فما كان منه الا ان ارسل سيارة إسعاف إلى المكان مع سيارة البلدية المختصة لقتل الكلاب الضالة فأخذوا الروبيو إلى مستشفى الأمراض العقلية والكلاب إلى مجزرة جماعية.

بعد هذا رجعت الأمور إلى طبيعتها فالكلاب يجب أن تبقى كلابا ، والحمقى يجب أن يبقون حمقى والمدينة جنوب البحر الأبيض المتوسط يجب أن يملأها هوموسابنس والمثقف فيهم صعلوك .

الحرب بين الحب والكراهية

كان أحمد طبيبا في قرية فلسطينية بالقرب من مستوطنة إسرائيلية على مشارف الخليل، وكان يعيش لوحده مع إبنه الصغير بعدما قتل المستوطنون زوجته وهي عائدة من المستشفى الذي كانت تشتغل فيه ممرضة .

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة حيث كان الثلج يغطي هضاب الخليل ويزين شجر الزيتون بحلي ابيض، سمع أحمد دقات عنيفة على بابه .

هرول إلى الباب ظانا ان هناك أحد من جيرانه يطلب العلاج أو حالة مستعجلة تتطلب التدخل السريع .

لكن المفاجأة كانت غير منتظرة ، بحيث أول ما فتح الباب ظهرت سيدة في الثلاثينات من عمرها وهي ترتدي الأسود وتتكلم العربية بلكنة توحي أنها يهودية . خاف أحمد ظانا انها تريد ان تستدرجه إلى خارج القرية لتصفيته ، فقد حدث هذا كثيرا قبل ذلك.

بدأت السيدة في البكاء متوسلة ان يذهب معها ، فابنتها التي لا يتجاوز عمرها الرابعة في حالة حرجة ولم تستطع نقلها إلى المستشفى لان الطريق كانت مقطوعة بالثلوج ولا يمكنها الانتظار حتى الصباح فابنتها قد تموت ان انتظرت حتى ذلك الوقت .

وبينما هي تحاول ان تقنعه وهي تقبل يداه اقبل ابن أحمد الصغير وهو مرعوب يبكي عانقته وهي تبكي متوسلة الطبيب.
تردد كثيرا أحمد قبل أن يوافق ملاحظا ان إبنه قد ارتاح لها طلب الدكتور أحمد أن تمهله خمس دقائق حتى يطلب من جيرانه ان يأخذوا عندهم إبنه حتى عودته ، لكن السيدة في الأسود اقترحت عليه ان يأخذه معه بدون أن يزعج الجيران وبوعد أنها سترجعهما بسيارتها بعد ان ينتهي من علاج ابنتها .
وافق أحمد والبس إبنه ثيابا شتوية كي لا يأخذ برد في الطريق ، ثم تحركت بسيارتها مسرعة إلى مسكنها في المستوطنة حيث امها العجوز مع ابنتها المريضة .

وصل أحمد فجس نبضها الذي كان متسارعا وحرارتها المرتفعة والتي وصلت لأربعين درجة .

نظر إلى اللوزتين فوجدهما ملتهبتين والبنت ترتجف تارة وترمي الغطاء تارة أخرى.

سحب الطبيب احمد حقنة لمضاد حيوي فناولها للطفلة ذات البشرة البيضاء والعينين الزرقاوين ، وبشدة الحرارة كانت وجنتاها كورد الرمان ، ثم تابع أحمد فناولها دواء ضد الالتهاب ، ثم صار يضع على مستوى رأسها الثلج وهو يغني لها اغنية على شجرة الزيتون حطت عصفورة ...

بعد حوالي ساعتين بدأت الطفلة تفتح عينيها، وأول ما نظرت إليه عانقته وهي تقول بالعبرية ابي العزيز ، لقد رجعت ، رجعت من سفرك إلى السماء لتزورني ؟ شكرا أبي.

أحمد كان يتكلم ويفهم العبرية بطلاقة مما دفعه للشك ان الطفلة ربما تهذي .

لكنها وبمجرد ما استقرت عيناها على امها التي كانت تحضر الشاي للدكتور حتى نادتها ، أمي أمي انضري إلى أبي ، لقد جاء من أجلي .

وضعت السيدة في الأسود كوب شاي على الطاولة ثم بدأت في البكاء فرحا لبداية شفاء ابنتها وفي نفس الوقت على زوجها الذي مات مقتولا في كمين للمقاومة الفلسطينية مباشرة بعد مقتل زوجة الطبيب كانتقام لما فعلوا .

كان زوجها يشتغل طبيب انعاش في نفس المستشفى الذي كانت تشتغل فيه زوجة أحمد . وكان يشبه أحمد كثيرا بحيث ان الطفلة بدأت تناديه أبي.

طبعا أحمد لم يكن يعرف كل هذا والسيدة في الأسود لم تكن تعرف أن السيدة التي قتل زوجها كانتقام لها هي زوجة أحمد الا بعد تلك الزيارة بأيام عندما حكت لها جارتها من يكون ذلك الطبيب الذي أتت به ليلا لينقذ ابنتها .

لم يلبث كثيرا أحمد حتى بادرها بالسؤال، سامحيني سيدتي لكن لماذا تناديني ابنتك بأبي؟

عندها حكت السيدة القصة كلها وأنه يشبهه كثيرا .

نظر أحمد إلى الساعة فكانت السادسة صباحا وبدأ ضوء الصباح يمسح ظلام الليل من فوق الأشجار وبدأت الطيور تحول سكون الليل إلى سيمفونية الجبال القدسية .

استيقظت الطفلة طالبة من امها الفطور وكانت حرارتها قد انخفضت.

طلب أحمد أن تقله وابنه إلى منزله ، لكن السيدة في الأسود تنبهت وقالت للطبيب: انا أنصحك ان تنتظر سيارة الإسعاف التي طلبتها لتقل ابنتي ماريا إلى المستشفى للفحوصات ان يرجعوك إلى البيت حتى لا يتهمك قومك بالخيانة والعمالة.

ضحك أحمد قائلا: انت على حق، فالتفت إلى الطفلة فإذا بها تعانق حمزة إبنه وتكلمه بالعبرية وتقبل جبينه.

ضحك أحمد والسيدة في الأسود ، وتابعت السيدة كلامها على زوجها فقالت انه كان يشبهك كثيرا، حينها فهم أحمد لماذا كانت تناديه البنت بابي.

مرت أسابيع وذات مرة والطبيب يتنزه في حديقة أمام منزله الذي يوجد على الطريق الذى يمر به المستوطنون ، فاذا به يسمع من خلفه نداء أبي أبي وبصوت طفلة . فلما التفت وجدها هي ماريا تقف وراء القضبان على حافة الطريق برفقة امها . تقدم أحمد بشيء من الحذر والخجل فألقى بالتحية على الأم وقبل الطفلة، فأحمد لم يكن طبيبا فقط بل طبيبا إنسانا.

شاهده أهل قريته فقاطعوه وكذلك كان الحال للسيدة في الأسود عندما رآها المستوطنون وهي تودعه في ذلك الصباح البارد .

لكن السيدة في الأسود لم تعر اهتماما لما كان يحكيه عنها الجيران ، فكانت تقف كلما مرت ببيت أحمد مع ابنتها لتحييه . تطورت العلاقة بينهما من صداقة إلى مشاعر اسمى ، لكن أحمد كان يتردد ان يعترف لها بالحقيقة حتى لا تضيع منه كصديقة كما ضاع منه اهله لا لشيء إلا لأنه رفض ان يكره الآخر ولو طفلة

لكنه ذات مرة وهو يتمشى في شوارع الخليل لمح السيدة وابنتها في مقهى فترجل هو وابنه بالدخول وألقى التحية ، ليطلب بعد ذلك الإذن بالجلوس بالقرب من السيدة ليعترف لها بمشاعره الحقيقة .

قبل أن ينطق بادرته قائلة : انا عرفت كل شيء من امي وجيراني ، وأشكرك على حسن معاملتك لي ولابنتي ومشاعرك النبيلة رغم ما حصل لك ولابنك ولن اكون انا أقل منك شهامة فكلاهما ماتا نتيجة كراهية بعضنا لبعض . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يقضي على الكراهية هو الحب .

تفاجأ أحمد بكلام السيدة ، فتلعثم في الكلام ثم قال: انا احبك ، اتقبلين الزواج مني ونرحل من هذا الوطن الذي شمسه كراهية وشتاءه دماء من كلا الجانبين؟

مدت يدها لتشد على يد أحمد بكل حنان وهي تقبلها، ثم قالت: انا ايضا احبك وكنت انتظر منك هذه الخطوة . فانا لن أجد أحن ابا لابنتي اكثر منك ولا زوجا ارق منك .

انا اقبل الزواج منك ، لكن ليس هنا بل في بلد يتزوج فيه المسلم باليهودية ويعيشان في سلام . هناك حيث ولدت وترعرعت .

لم يصدق أحمد كلام السيدة وظنها تمازحه . لكنه سألها، أين هذا البلد واين ترعرعت وولدت؟

ابتسمت ونظرت اليه وهي تستهزيء قليلا ،انت عربي ومسلم ولا تعرف هذا البلد؟

اجابها: لا والله لا اعرفه.

قالت السيدة، في الاسود ، المغرب عزيزي نعم المغرب حيث ما زال بيت جدتي هناك .

فأنا سأقوم بكل الإجراءات . وبعد شهر كانا مع طفليهما على متن الطائرة القادمة من باريس لمراكش.

مراكش حيث تذوب كل الفوارق.

مراكش حيث تتناغم كل الحضارات .

مراكش حيث الكل مواطن لا فرق بين مسيحي ومسلم ويهودي.

مراكش حيث عاش أحمد والسيدة في الأسود اسعد ايام حياتهما وحيث دفنا الكراهية التي حملاها معهم من فلسطين تحت جذع النخيل .

السفر الى المستقبل

خرجت من بيتها في قرية جبلية لتتمشى على ضفة النهر الذي لم تكن تعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي

كانت تمشي وتبحث عن شجرة على ضفة النهر لتجلس تحتها ولتكمل قراءة آخر الصفحات لرواية قد بدأت قرأتها منذ زمن ولم تكملها نظرا للمشاكل التي تمر بها في حياتها الشخصية. بينما هي تتمشى ، وقعت عيناها على قارب يرسو فوق الماء فركبته دون أن تلاحظ انه لم يكن مشدودا لجذع الشجرة ولا كيف بدأ في الإبتعاد عن الشاطىء لكونها كانت غارقة في القراءة .

كانت غائصة في الكتاب وبين سطوره . وعندما بدأت الشمس تغرب رفعت رأسها فإذا بها بعيدة عن القرية وحتى عن مشاكلها التي تركتها في البيت .

حاولت أن تجذف بيدها بكل ما أوتيت من قوة حتى وصلت إلى ضفة أخرى مهجورة لا يسكنها إلا الأشباح .

قصدت كوخا وسط الأشجار ينبعث منه دخان وهي ترتجف وكأنها تقرأ آخر صفحات قصتها .

اقتربت بحذر وهي تنادي بصوت يملؤه الخوف : هل من أحد هنا ؟

أجابتها عجوز تفضلي يا بنيتي فأنا لا أقوى على النهوض بسهولة.

أول ما رأت العجوز تذكرت صورة أمها قبل أن تموت ، وأول نظرت في المرايا التي كانت على الحائط عرفت من تكون العجوز

الطفلة البدوية

كانت فاطمة طفلة أمازيغية تسكن مع أهلها في جبال الأطلس ، وأقرب مدرسة من مسكنها التي بناها الإستعمار في الخمسينات كانت تبعد حوالي خمسة كيلومترات على بيتها . وهي صغيرة دون سن التمدرس كانت تذهب إلى المسجد لتتعلم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن ، وعندما وصلت سن الثامنة من عمرها اضطر والدها لإرسالها إلى المدرسة مع أخيها الصغير الذي كان يصغرها بسنتين كي تحميه في الطريق وتساعده على حمل محفظته .

مرت السنة الأولى والثانية والثالثة وكانت كل مرة تحصل على علامات مشرفة عكس أخيها .

وذات يوم نضمت مسابقة في المنطقة بين التلاميذ فصنفت الأولى مما أتاح لها ان تحصل على منحة في أرقى مدرسة في العاصمة.

تردد والدها بأن يتركها ترحل من القرية لأنها كانت تساعد أمها بعد الدرس ، لكن الأم اقنعته وخاصة ان الجمعية النسوية هي التي ستتكلف بتمدرسها وبسكنها ومأكلها ومشربها . وفي الأخير وافق الأب بشرط أن تنجح بعلامة مشرفة في آخر السنة ، وكانت المفاجأة انها حصلت على المرتبة الأولى في نهاية السنة الدراسية .

بعد بضع سنوات حصلت فاطمة على الثانوية العامة بمعدل خول لها الولوج إلى كلية الطب ، وكانت أول بنت قروية تنال هذا الشرف بعد الإستقلال .

كانت زميلاتها تستهزىء منها بلباسها البدوي وكلامها البدوي وبلكنة وهي تتكلم الفرنسية تختلف عن تلك التي تعودن ان يسمعنها في البعثات الفرنسية في المدن . لكنها كانت قوية الشخصية وكانت تعرف ماذا تريد من هذه الحياة منذ صغرها.

استكملت دراستها وحصلت على دبلوم الدكتوراه في الطب بميزة حسن جدا مما أتاح لها الفرصة لتتابع اختصاصها في جراحة الأطفال بفرنسا .

وبعد خمس سنوات تخرجت فاطمة من كلية الطب بباريس في جراحة الأطفال .

عادت فاطمة إلى وطنها وهي فخورة سيما وأنها بدأت صدفة ومن الصفر متحدية الفقر والتضاريس ، لتتبوأ المرتبة التي وصلت إليها بفضل عزيمتها واجتهادها .

وصلت وكان في انتظارها أبويها وأخيها وبعض الأصدقاء من قريتها .

وبعد شهر من الأيام عينت فاطمة رئيسة قسم جراحة الأطفال في المستشفى الجامعي بالرباط وكل من كان يستهزىء منها في الماضي صاروا يشتغلون تحت إمرتها .

الحب المستحيل

وهو يتصفح صفحات الفيس بوك وقعت عيناه على شابة شقراء وبعيون زرقاوين أمواجها تسافر بين البارحة واليوم تحكي بكل عفوية وهي مع بناتها ومع أصدقائها ولا تكترث لأحد وهي تظهر جمالها الذي حباها الله به .

تتبعها بكلام محترم وبتلميح انه معجب بها ، لكنها اخذت وقتا لتجيبه.

ولما إجابته اختطف الفرصة ليقول لها أجمل ما عنده وان يهدي لها لحظات السعادة ولو على الهواء .

استمر ذلك بضعة أيام أو بضعة أسابيع ليدرك انها متزوجة وان لديها طفلتين جميلتين بابتسامة ملائكية .

كانت كالصاعقة عليه وهو الذي جرب حرقة فراق أطفاله مع أمهم غصبا عنهم وحس انه يضع رجليه في موطن محرم عليه وانه قد يتسبب في هدم أسرة وفي كسر ابتسامة تلك الفتاتين .

تعذب كثيرا وقاوم كثيرا قبل أن يقول كلمته : تبا لك أيها القلب ، تبا لك ايها الحب تبا لك أيها الحضن البئيس .

اللعنة على حظي ، اللعنة على الحياة.

كتب لها : سامحيني انني دغدغت مشاعرك وحرضتك على المغامرة ولكنني لست نذلا .

انا هنا وسأكون هنا في أي وقت احتجتني يا صديقتي ويا صغيرتي.

لم تأخذ وقتا كثيرا حتى أجابته ، لا عليك يا صديقي فأنا في حالة فراق مع زوجي ولو اننا نعيش تحت سقف واحد ، وذلك من أجل طفلتي .

احيت فيه شعور الأمل وتغير نبض قلبه المتيم بصوتها، بجمالها، بعينيها التي تذكره بأعماق البحر وبابتسامة أميرة القوقاز .

ثم عاد ليراسلها أكثر فأكثر دون أن يشعر أنه أغرم بها وهي به .

تحولت علاقتهما إلى شيء جميل ونقي بحيث أصبحا لا يستغنيان بعضهما عن بعض ويتبادلان الرسائل عشرات المرات في اليوم وكأنهما يتحدثان مع بعض متجاهلين المسافة التي تبعدهما .

بل وقد سافر يوما ليواعدها ويطوي تلك المسافات من أجل حبهما ، وليقبلها لأول مرة وكأنه ذهب ليهدي لها قلبه ويأخذ قلبها .

ذات صباح من فصل الخريف والشتاء بدأت تغسل أوراق الشجر التي أحرقها الصيف رن هاتفه فتغيرنبضه وصار قلبه يدق بسرعة . كان اتصالا عبر الروح قبل أن يكون عبر الهاتف.

تناول الهاتف ليقول ألو ، فإذا به يسمع صوت بكائها الذي مزق قلبه . حاول أن يهدئها وهو يسأل : ماذا بك ؟ ماذا حصل؟ البنات بخير ؟ وانت؟

أجابت بكلمات متقطعة وهي تبكي : لا شيء لا شيء ، لقد طردني وابنتي من البيت .

حزن من أجل البنتين لكنه وفي نفس الوقت غمره فرح كان ينتظره منذ تعرف عليها . فرح لانه وأخيرا سيجمعهما ذلك الحب العظيم الذي كبر في قلبيهما يوما بعد يوم ليصل إلى مرحلة العشق والهيام .

استقل أول قطار إلى مدينتها ليأخذها إلى بيته ، وبعد اكتمال العدة بيوم عقد قرانهما بين الأهل والأصدقاء ليعيشا أجمل الأيام .

وبعد سنة من زواجهما ازدادت العائلة في عددها بمولود وكأنه ملاك سموه هيام .

الإغتصاب والإنتقام مرتين

كانت الإنتفاضة في ذروتها، وكان شباب فلسطين بمختلف اعتقاداتهم وأعمارهم يجمعهم شيء واحد وسلاح واحد ضد المحتل . أما القضية فيه القضية الفلسطينية ، وأما السلاح فهو حجارة أرض فلسطين.

في أحد الليالي الباردة من تلك الأيام وبينما شارع الخليل كان يغلي ، داهمت احدي الفرق العسكرية الإسرائيلية منازل الفلسطينيين للقبض على أطفال وشباب الإنتفاضة في حي داخل المدينة .

داهمت فرقة مكونة من ثلاثة عساكر بيتا كانت تسكنه عائلة مكونة من أب وطفلين بنت وولد في سن العاشرة من عمره، أما الأب فلم يكن حاضرا في ذلك اليوم .

كانت الأم خائفة على طفلها فخبأته في صندوق قديم تحت السرير في غرفة نومها.

كسر الجنود الباب وبينما وقف أحدهم خارج البيت دخل اثنان بسلاح موجه إلى الأم التي كانت ترتجف بالخوف وإلى البنت ذي السادسة من عمرها ، ولما لم يجدوا رجلا أو طفلا في البيت بدأوا في مهاجمة الأم التي كانت تتحلى بجمال لا يقاوم.

ألقوا بالأم على فراشها وبدأوا في تقطيع ثيابها واغتصابها واحدا بعد الآخر وهي تقاوم وتبكي بحرقة لا يشعر بها إلا من اغتصبت أرضه وشرفه أمام أعين ومسامع أطفالها . كانت تئن وفي نفس الوقت تردد بلاها يا يوسف وهي بذلك تقول لولدها بأن لا يخرج من مخبئه خوفا عليه .

كان الطفل يراقب من ثقب الصندوق ويحفظ وجوه مغتصبي امه . بعدما أشبعوا رغباتهم نادى عليهم قائدهم بالأسماء فاستقلوا سيارة ادجيب وانصرفوا .

خرج الطفل من تحت السرير بعدما لملمت أمه جسدها الملوث وهو يبكي بحرقة وكأنه هو من اغتصبه الجنود الإسرائيليون .

كان أبوه غائبا قبل هذه الحادثة بشهرين ، وعندما عاد لم يحك له شيئا اخذ بوصية أمه كي لا يسبب له الألم ولكي لا يرتكب جريمة في حقه أو في حق زوجته بإسم الشرف .

بعد سبعة أشهر وضعت أمه طفلا لا يشبه أحدا من أهله، وكان يوسف يعرف من أين ذلك الطفل القادم إلى بيتهم . كان يعرف من نظرات أمه أن ذلك الطفل هو طفل عار ، ولكن حرصا على شرف أبيه لم يستطع فعل شيء إلا أن يكرهه .

مرت السنين وكبر يوسف وأخاه القسم لأنه هو من اختار له هذا الإسم حتى بلغا الثامنة والعشرين والثامنة عشرة.

وفي أحد الأيام وهو يتسوق في سوق من أسواق الضفة رأى أحد مغتصبي امه ومعه فتاة جميلة في سن أخيه القسم وبينهما تشابه لا يصدق . حينها قرر أن يعرف المستوطنة التي يعيش فيها وعنوانه فطلب عنده شغل البناء لإن الرجل كان يشتري مواد البناء فوافق شلومو مغتصب أمه .

عاد يوسف إلى البيت وهو يخطط لطريقة الإنتقام حتى يحس المغتصب أضعاف الألم والإحساس الذي شعر به وهو يراقب شرفه وشرف أمه يمرغ في التراب من مغتصبي أمه وأرض أجداده . قرر أخذ أخيه القسم معه بنية عملية للمقاومة داخل المستوطنة ، ولما استقبلهم شلومو في الصباح وأعطاهم تساريح الدخول والخروج إلى المستوطنة ، قرر يوسف وهو من عانا من الحقد لما لحق بأمه لعقدين تقريبا أن يستغل هذه الفرصة لينتقم لشرفه وشرف أمه في آخر يوم عمله .

كان كلما ذهب لشراء البضاعة يأتي بسلاح أو سكين يدفنه في الحديقة التي كان يشتغل فيها وكان كل يوم يشحن أخيه بأفكار المقامة ويؤجج مشاعر الغضب والكراهية تجاه المغتصب دون أن يقول له الحقيقة . وفي آخر يوم قررا تنفيذ العملية في الليل قبل مغادرتهما المستوطنة ، أخذوا مستحقاتهما وطلبا من مستخدمهما أن يبقيا عنده حتى تهدأ الشتاء لإن ذلك اليوم وبصدفة كانت تمطر كثيرا . فاستجاب لهما وطلب منهما قضاء الليل عنده حتى الصبح . في الليل قام يوسف وأخاه بكسر الباب دونما تعب ، ودخلوا غرفة نوم شلومو فكتفوه ، ثم داهما غرفة ابنته صارة وكتفوها ثم أغلقوا فمها بقطعة من الثوب فأخذوها إلى الأسفل حيث أبيها . قام يوسف بخلع ثوبها الليلي من فوقها وأمر أخاه القسم أن يغتصبها أمام أعين من اغتصب أمه .

تردد قليلا لكن جمال البنت وخوفه من أخيه يوسف جعلته يقدم على ذلك ، بينما كان أبوها يبكي ويرتجف كما كانت تفعل أمه حين اغتصبها شلومو . أخرج يوسف المسدس من جيبه وهو يحكي في أذن شلومو دون أن يترك له قبضة المسدس اضغط على الزناد لتنتقم من مغتصب ابنتك . وبدون تردد فعل واردى القسم قتيلا وبكرة ابنته تنزف أمام أعينه حينها وقف يوسف مبتسما وعلى وجهه قسمات انتصار ونشوة ، فنضر إلى شلومو قائلا.: أتذكر تلك المرأة المسكينة وأنتم تتناوبون عليها ؟ أنظر إلى وجه أخي وإلى ابنتك . لقد قتلت للتو إبنك وهو يغتصب ابنتك ، ثم ركب السارة ورحل. اما يوسف فقد استشهد في مواجهة مع المحتل بعد شهور، وأما شلومو فقد فقد عقله ومن يومها وهو يقبع في مستشفى الأمراض العقلية بالقدس.

الشجرة التي لا تزهر إلا في بياتها

كان عز الدين أستاذا جامعيا في إحدى الجامعات المغربية وبالتحديد في مدينة الدار البيضاء (كازابلانكا).

عاش طفولته فقيرا بين إخوان وأخوات من أم وأب واحد .

لكن طموحه كان أكبر من أن يكون إنسانا عاديا، فهو في المدرسة كان شغوفا بالأيديولوجية التقدمية الإشتراكية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي مما جعله يلتحق بالحزب الإشتراكي المغربي.

كان نشيطا وحذرا في نفس الوقت لأنه كان يعلم أنه لا يملك وزنا في المجتمع والحزب ، فإن وقع في ورطة لن ينقذه أحد إلا قدره

حصل عز الدين على البكالوريا فكانت وجهته طبعا إلى منبع الإشتراكية أي إلى الإتحاد السوفياتي.

إختار شعبة اللغات والسوسيولوجيا كي يفهم أكثر فلسفة وثقافة كان يعشقها حتى العبادة.

درس عز الدين وحصل على دبلوم الدراسات العليا ما يعادل دكتوراه في العلوم السوسيولوجية و اللغة الروسية، ثم عاد للمغرب ليساهم في تدريس وتوعية شباب وطنه.

هيهات ، لقد تغير كل شيء . فالمناهج التعليمية تغيرت والأهداف تغيرت بل وحتى قيادات الأحزاب تغيرت .

كان الإحباط يصل إلى ذروته .

ومع ذلك قبل عز الدين التحدي بالعمل في الجامعة لعله ينقذ ما بقي انقاذه . لكن اجتياح الراديكالية الإسلامية والوهابية للفكر وسط المجتمع وداخل المؤسسات التعليمية بمساعدة المسؤولين عن التعليم والحياة الثقافية كانت له بالمرصاد .

لم يستسلم الاستاذ عز الدين، بل قاوم لأن حياته اتسمت كلها بالمقاومة ، ولان الحياة علمته أن يكون صبورا منذ صغره .

كان يعطي دون مقابل وكان منفتحا لكل حوار، حتى أن أعداءه أحبوه.

لكن شجرته كانت لا تثمر في تربة يأكل فيها الدود كل نبات بل كل بذور المعرفة والثقافة حتى قبل أن تخضر.

حينها أدرك عز الدين انه يزرع في أرض لا ربيع فيها وفي مجتمع خدروه بالأفكار الرجعية المتطرفة .

انتظر الأستاذ يوم معاشه ليجمع أصحابه في ليلة حميمية وحزينة في نفس الوقت وهو الذي استانس بالوحدة وبكتبه المعلقة فوق رأسه.

جمعهم ليقول لهم أنا راحل ، لتهوى الكتب فجأة وبالصدفة فوق الأرض . ربما حزنا عن فراق من كان يداعبها كل ليلة ؟

ثم استأنف الحديث ليقول : لا ليس إلى الدار الاخرى ، بل إلى مكان يذكرني بالمدينة الفاضلة .

انا راحل قال عز الدين بعد يومين إلى مكان إلى مكان اخترته ليكون جنتي في هذه الدنيا وحيث ستتساقط آخر أوراق عمري .

كنت من المعزومين في تلك الليلة بل ومن المحضوضين الذين أخذوا جائزة الصداقة وبطاقة الوداع من عز الدين وهي عبارة عن رواية كان يعشقها.

عن غير قصد نسي فيها بطاقة باريدية لبلدة في ايطاليا مكتوب على ضهرها هنا سأعيش خريفي.

لم يخبرنا عز الدين إلى أين ينوي الرحيل وكأنه يودعنا إلى الأبد ربما كنا نذكره بشيء ما في هذا المجتمع الذي انكر عطاءه أو بماض يريد أن ينساهما.

لم أقرأ الرواية إلا بعد مرور سنين حيث عثرت على البطاقة.

كان الشيب قد غزا جميع المساحات فوق رأسي، فقررت أن أغامر وأسافر إلى تلك القرية لألقى واحدا من أرقى وأعز أصدقائي .

كان ذلك اليوم صيفي والرفيق الوحيد الذي كان يرافقني هو عكازي .

حطت الطائرة في مطار روما ، ثم انتقلت الى فندق في وسط المدينة حيث قضيت ليلتي بعد أن عدت من مطعم قريب سمحت فيه لنفسي أن تتذوق بعض ملذات هذه الأماكن .

في الصباح الباكر استيقضت وتناولت الفطور قبل أن يصل صاحب سيارة الأجرة ليوقلني إلى محطة القطار.

وانا اهم بمغادرة الفندق والرواية في يدي اليسرى ومحفضتي في اليد اليمنى أجرها تحت شتاء خفيفة تكتب على تجاعيدي قصيدة شعر لا يفهمها إلا من قرأ لبوشكين

وكانت عجلات محفظتي وخطواتي تعزف سيمفونية تشايكوفسكي فوق الرصيف .

ركبت القطار وبدأت الرحلة إلى جنة صديقي االذي اختار ان يعيش فيها . كان يؤمن أن جنة الأرض يمكنه أن يعيشها بإرادته وطموحه أما   في وطنه ، فحتما لن ينالها في وطن أشجاره لا تثمر إلا الحقد والجهل والكراهية .

وصلت إلى البلدة وكان إسمها توسكانا . نزلت من القطار وقصدت أقرب فندق هناك .

فتحت لي الباب سيدة في الأربعينات من عمرها وبابتسامتها كانت تشبه تلك اللوحات التي نراها على حائط المتاحف لليونار دافنتشي.

صعدت إلى غرفتي لارتاح شيء ما من تعب السفر . وفي المساء قررت أن أذهب لاتمشى في أزقة المدينة التي تحكي بألوانها وهندستها تاريخ أمة صنعت أعظم التاريخ .

نظرت إلى الساعة وكانت التاسعة مساء وأنا أمام مطعم صغير في أحد الأزقة وكانت تنبعث منه انغام موسيقية ايطالية ممزوجة بدخان السجائر من بابه وكأنه يكتب نوتات اللحن .
دخلت لأتناول العشاء قبل أن أعود إلى الفندق ولاستمتع شيء ما بالموسيقى الجذابة التي كانت تشدني إلى المكان .
كانت صاحبة المطعم سلافية الملامح وبرغم سنها الذي قد يتعدى الخمسين سنة لكن حروف جمالها لم تنل منها السنين .
طلبت مشروبا ووجبة خفيفة فأنا لا أحب ان أكل كثيرا في المساء .
بعد مرور قليل من الوقت جاءت فرقة موسيقية مع مطربة وكانت معظم الأغاني والمعزوفات روسية . هنا فهمت أنني فعلا وصلت إلى مملكة صديقي عز الدين وانها فقط مسألة وقت لأنه كان يعشق مثل هذه الأماكن.

انتظرت طويلا وكان ذلك اليوم يوم جمعة. لكن العياء بدأ يغلبني فأخذت عكازي واتجهت إلى الفندق لأخذ قسطا من الراحة.

في الصباح الباكر استيقظت واتجهت إلى الشاطئ لأكتشف شروق الشمس بين الجبال والبحر وكأنني أبحث عن ملاك يدلني إلى صديقي . كانت قوارب الصيد والسياحة تشكل لوحة متحركة فوق الأمواج .

تناولت وجبة الفطور هناك على غناء صوت البطرس، ثم عدت إلى الكاتدرال ومسرح باريس لاتمشى قليلا .

بعد ذلك عدت إلى الفندق، وفي المساء قصدت نفس المطعم في المدينة العتيقة وطلبت نفس الأكلة ونفس المشروبات.

عندما جاءتني النادلة بطلبي رحبت بي بابتسامة وهي تقول عفوا سيدي، أيمكن لي أن أطرح عليك سؤالا ؟

بدون أي اعتراض قلت تفضلي .

قالت : هل تعجبك الوجبات الروسية لهذه الدرجة ؟ لقد طلبت نفس الشيء البارحة .

نعم سيدتي فأنا عشت هناك خمسة عشرة سنة وكانت أجمل سنين حياتي .

ولماذا هذا السؤال سيدتي؟

ابتسمت، وقالت : عندنا زبون يأتي من حين لآخر وهو أيضا يطلب نفس الأكل ونفس المشروب ، انه إنسان راقي .

خفق قلبي ولم أمتلك فضولي فسألتها في حين ،

أهو يبتسم كثيرا ويتكلم قليلا ؟

نضرت إلي بتعجب ثم قالت : وكيف عرفت؟

قلت فقط حدس ولكنني كنت أتمنى ان يكون هو ، ذلك الصديق العزيز الذي افتقدت فيه معنى الصداقة وحلاوة الصحبة ولغز الكلام .

ذهبت لفترة ثم عادت لتقول لي وهي تهمس في أذني انظر إلى تلك الطاولة على جنبك الأيسر ، هو ذلك السنيور الذي حدثتك عنه .

كان بصري ضعيفا شيء ما وبالخصوص ليلا ، ما جعلني اقترب منه لألقي السلام بالفرنسية فلربما كان فعلا هو .

ألقيت السلام بينما هو منكب في قراءة روايته .

قبل أن يرد السلام وضع الرواية فوق الطاولة ورفع رأسه ثم ابتسم لتتبع الإبتسامة دموع .

لم أتمالك نفسي حتى تقاسمت دموعه وأنا أقبله على وجهه وجبينه.

ونحن نتقاسم المشروب المفضل لدينا سألني عن جميع الأصدقاء وهو يقول أوحشتوموني كلكم كما أوحشتني فوضى الحياة وعبثيتها هناك . فالحياة هنا مملة شيء ما ومرتبة تجعلك تثور أحيانا حتى على نفسك .

اكمل كلامه بحرقة في نبرات صوته ، ليجيبه: اسمع يا صديقي ، انت لم تغادر قلوبنا لتعود اليها بل انت ساكن فيها إلى الأبد والدليل على ذلك وجودي امامك .

ثم أجبني رحت سائلا : ما جدوى الشجرة دون أغصان أو أوراق؟

وما جدوى الجسم بدون روح ؟

وما جدوى الحياة في جزيرة ؟

وما جدوى كلمة صداقة بدون أصدقاء؟

أنت يا صديقي كشجرة النخيل تنبت في أرض جوها قاس جدا وهناك فقط يمكنها أن تثمر .

ابتسم كعادته دون تعقيب . فصار يرحب بي كثيرا لنسترجع بعد ذلك الذكريات الجميلة.

انهينا السهرة متأخرين وكأننا شبابا ثم أوصلني إلى الفندق . ونحن في الطريق سألني: وكيف وجدتني؟

قلت لست انا من وجدك؟ ومن إذا سأل عز الدين؟ روايتك هذه فسحبتها من جيبي لأمدها له . أخذها وهو ينظر إليها باستهزاء، ثم قال : لقد قرأتها هنا أيضا ولكن ليس بنفس الشغف. لست أدري لماذا؟ نظرت إليه مبتسما لأجيبه ، لأنك قرأتها بعيون وروح أنهكتهما الغربة يا صديقي . لإننا لا يمكن أن نحول مكان شجرة عجوز من أرض لأخرى والا ماتت بسرعة . وقبل أن تموت، يموت جمالها وروحها فلن تثمر كما كانت من قبل . استمع الي بتمعن ليقول لي : صرت فيلسوفا صديقي ولم أعهدك كذلك. العمر والمحن تجعلك كذلك أخي.

الخيانة في فصل الخريف

كانت تقف هناك تحت شجرة الصفصاف وهي ترتعش ، بينما شعرها الذهبي بللته شتاء خفيفة مسحوبة برياح خريفية باردة.

تنظر تارة على اليمين وتارة على الشمال وكأنها تنتظر أحدا يقيلها من ذلك المكان المعزول . لكن نظراتها إلى السماء كانت لها معنى التوسل لتغسل الشتاء قلبها وترقص معها كي تطفىء النار التي كانت بداخلها .

وهي تغير مكانها بخطوات صغيرة يمينا وشمالا، كانت تزعج العصافير التي جاءت تبحث عن مكان لتنام فيه . وعندما أكثرت من حركاتها غادرت العصافير الشجرة لتتركها وحيدة دون انيس.

مرت حوالي ثلاثون دقيقة وأنا أراقبها ولم يأت أحد إلا المارة الذين كانوا يعاكسونها بكلمات مخجلة.

أخرجت سجارتها فاشعلتها دون أن تهتم لنضرات الناس المعاتبة بصمت أو بصوت خافت.

وانا أشرب قهوتي على شرفتي القيت التحية بالإشارة للسيدة الشقراء.

فردت علي بابتسامة يائسة وحزينة، دعوتها لتأخذ معي القهوة ، وهذه المرة بكلام مهذب يليق برجل مثقف مثلي.

قبلت الدعوة وكأن بداخلها حدس أن الذي تنتظره لن يأتي.

أشرت لها عن رقم شقتي فترجلت وصعدت . وعندما فتحت الباب أدركت مدى جمالها.

تعجبت للحظة كيف يمكن أن تبقى هذه الجميلة لوحدها في هذا المكان؟ وكيف لرجل أن يواعد جمالا مثل هذا ولن يأتي؟

بعدما جلست بغرفة الضيافة، أحضرت لها قهوة وأشعلت لها سيجارتها. وانا أحاول أن أجد مكانا قبالتها، نظرت إلي قائلة: أنا حمقاء لأنني قبلت دعوة من رجل غريب لم أعرفه من قبل .

ابتسمت، ثم قلت مجيبا عن كلامها: أنا رجل راق سيدتي ولا يمكن أن أرى سيدة بجمالك في الشارع وتحت المطر ولا أعزمها على فنجان قهوة لتحتمي من البرد ومن الصعاليك.

لاحظت إطمئنانا على وجهها وهي تسمع مني هذا الجواب .

سكتت قليلا ثم قالت: شكرا لك ، أنا فعلا كنت بحاجة إلى مكان آمن بعدما غدر بي الزمان ، ثم تابعت وحتى من احببته وتزوجت به رغم معارضة أهلي له .

فهو الآن مع عشيقته التي تسكن هنا عندكم في العمارة وسيارته تحت . لكن الشجاعة خانتني كي أصعد لأدق على الباب . اخاف من المشهد من الصدمة .

عرفت من تكون بالوصف منها طبعا . احسست بشفقة على المسكينة وفي نفس الوقت صرت اهدؤها واعطيها الأمل في الغد وانا اشد على يدها .

لاحظت ذلك ثم كبركان ارتمت علي وكأنها تريد اغتصابي وهي تقول تبا له تبا له سأفعل نفس الشيء واليذهب إلى الجحيم.

دفعتها عني بقوة لأنني أرفض ان أكون أداة انتقام ، وعندما بدأت في البكاء ضميتها عندي وهي تشهق وتقول : سامحني سامحني لقد جننت فعلا .

أجبتها : لا بأس سيدتي وانا كما قلت لك انسان راقي ونبيل ولن اسمح لنفسي ان استغل ضعف النساء .

بينما هي تبكي في أحضاني سمعنا صراخا واصطداما في الشارع .

ذهبت مسرعة إلى النافذة ، فإذا بزوجها غارق في الدماء وهو مستلق على الرصيف بعدما دهسته سيارة كانت تسير بسرعة فائقة.

نزلت مسرعة وهي تهرول دون أن تعي انها تخطىء في عد الادراج بينما حياتها مع زوجها بكل تفاصيلها كانت تمر أمامها كفيلم بالأبيض والأسود . ارتمت عليه فضمته وهي تبكي وتقبله بحرارة ناسية الألم الذي سببه لها قبل قليل . بعد بضع ثوان فتح عينيه ونظر إلى وجهها وهو يبتسم و عينيه تدمعان فبدل الشهادة قال لها سامحيني احبك ثم رحل .

بينما السيدة التي قضى معها اوقات غرامية قبل دقائق كانت تراقب كل شيء من الفوق ، اكتفت بإغلاق نافذتها بعدما رأته ينزف وكأنها انتهت من آخر صفحة رواية لتنتقل الى رواية أخرى.

لوحة رسمها البحر

كنت أمر بشاطىء كل مساء وانا عائد من العمل، وكنت أرى ذلك العجوز فوق الصخور وهو يحاول اصطياد السمك بسنارته حتى يرجع إلى بيته بهدية لأولاده من البحر الذي صاحبه طول العمر والذي لم يبخل عليه يوما .

لكن الأيام الأخيرة كان أقل سخاء وقليلا ما كان يعطيه ما ينتظره منه العجوز.

استمرت رحلاتي واستمر ذلك المشهد لأيام وشهور وسنين.

ذات يوم صيفي لم يصطد العجوز شيئا فخشي ان يعود إلى اطفاله فارغ اليدين ليرى الحزن في نظراتهم . وهو في حيرة من أمره اخذه النوم قليلا فوق تلك الصخور عسى ان يجود عليه البحر ليلا بشيء من السمك .

لم يتحمل البحر حزن العجوز ومأساته فأرسل أمواجا عاتية وهو نائم ليسحبه إلى أعماقه وليخلصه من عذاب حرمانه رؤية السعادة في أعين أطفاله وهو عائد فارغ اليدين .

وانا عائد من نفس المكان ، لم أجد العجوز فوق الصخرة وكأن اللوحة التي كنت اشاهدها كل يوم قد استبدلت أو احترق منها جزء كبير .

لم تتقبل عيني ذاك المشهد فثار في داخلي الفضول .

ماذا حصل للعجوز؟ ولماذا ليس في مكانه؟ ووو

وقفت على الشاطىء وبدأت امشي فوق الرمال وكانني أسأل الموج .

اقتربت من الصخور فإذا بي أرى قصبة صياد السمك وهي تعوم فوق الموج.

اقتربت وسحبتها بكثير من الجهد .

هنا كانت المفاجأة . كان العجوز معلقا على سنارته . لقد ابتلع البحر صديقه حينما لم يبق السمك في أعماقه ليهديه له ويحافظ على كرامته .

لقد اخذه البحر قبل ان يستيقض من نومه ومن أحلامه . اخذه بما تبقى لديه من امل وكرامة.

خاف البحر ان يرفض طلب صديقه فيهجره إلى الأبد وهو منهزم ، فاختار أن يأخذه الى أعماقه قبل أن يقتله الجوع والحزن والخيبة.

أخذه وهو يقاتل بشرف من أجل حياة كريمة له ولأطفال .

اخذه وهو في أعين أبنائه بطل .

وانا أحاول جذبه إلى الشاطئ، تكلمت السماء برعد وبرق وشتاء لتبكي عن عجوز أمن بقدر الأرزاق والسماء وبسخاء البحر قبل أن يفرغه الإنسان من خيراته .

دراما في المقهى كتبها عجوزان

كنت أجلس في تلك المقهى القريبة من المستشفى الجامعي كعادتي أتناول قهوتي بصمت وأنا أتصفح الجرائد قبل أن يدخل عجوزان رجل مقعد في عقده السبعين وسيدة مسنة تدفع عربته .

جلسا أمامي وطلبا فطورا من النادل . ولم تمر الا بعض دقائق ،حتى جاءهما بطلباتهما.

بدأت السيدة تناول زوجها الفطور وتمسح وجهه كلما سقط شيئ من فمه وكأنها تطعم طفلها.

وكان هو يقبل يدها كلما مدتها إليه .

كنت أختلس النظرات حتى لا أثير انتباههما . وما أن أكمل العجوز فطوره حتى قال وبصوت مؤثر : سامحيني حبيبتي ، لقد أتعبتك معي .

نظرت إليه وهي تبتسم ثم قالت وهي تقبل جبينه: عن أي تعب تتحدث عزيزي؟

أنسيت حين كنت تغسل لي لما كنت حاملا ببنتنا؟

أنسيت كيف كنت تدلك لي رجلي عندما كنت أشكو بألم وأنا مثقلة بالحمل؟

أنسيت كيف كنت تنام معي في المستشفى وأنت جالس على الكرسي لتكون بجانبي أن احتجت لشيء عندما بتروا لي الثدي المريض بالسرطان؟

وكنت حينها شابا ولم تتركني بل أحسستني إنك تحبني أكثر من الماضي .

إذا كيف تطلب مني السماح يا عمري ؟

ابتسم العجوز ثم رد : الشيء الذي أحببته فيك ليس كلما يراه الناس ، بل قلبك الجميل الذي ينبض بداخلك وهو لن ولم يتغير أبدا مع السنين. وأنا الوحيد الذي يستطيع فهم نبضاته

ضحت السيدة حتى رأيت أضراسها بالسعادة وهي تسمع من زوجها المنهك بالمرض والشيخوخة هذا الإثراء والغزل.

لم أشعر ولم أتمالك دموعي وهي تهوي على خدي لتبلل شفتاي متأثرا بكلام العجوزين وكأنني أشاهد فلما رومانسيا في الستينات أو السبعينات من القرن الماضي.

ثم قلت في نفسي: لا المرض ولا الشيب يستطيع أن يقتل الحب إذا كان هذا الأخير صادقا ومادامت القلوب تنبض.

حتى يجمعنا الموت

كان شعيب في سن السبعين ، يحمل حقيبته ويتجه نحو سيارة الأجرة،.

وصل إلى نافذة السيارة وبعد التحية طلب من السائق أن يوصله إلى محطة القطار .

السلام عليكم سيدي، قال شعيب للسائق.

وعليكم السلام أجاب محمود بنبرة تعب وقلة النوم.

هل يمكنك أن توصلني إلى محطة القطار؟

تفضل سيدي فانا رهن الإشارة.

فتح شعيب باب السيارة وركب.

بعد بضع دقائق سال السائق شعيب ،

إلى أين أنت مسافر ؟

أجاب شعيب لست أدري .

ربما إلى سنين الشباب؟

بدأ السائق يشك في قواه العقلية .

فسأله ثانية : كيف يا سيدي تريد أن تسافر ولا تعلم إلى اين؟

أجابه شعيب: اسمع يا ولدي ليس لكل سفر اتجاه على الخريطة ، فهناك أيضا السفر في الزمان .

ازداد شك محمود السائق عن قوى عقل شعيب، وهو يردد بداخله : أي حظ أسود هذا ؟

كيف أبدأ النهار مع الحمقى؟

فبادره شعيب وهو يقراء ملامح محمود بعلامة استفهام: لن تفهم يا ولدي حتى تعيش حياة مثل حياتي.

ابتسم محمود وقال : معك حق سيدي.

ثم أكمل الطريق إلى محطة القطار.

وقبل أن ينزل الزبون قال له سفر موفق إن شاء الله.

نزل شعيب وادى واجبه للسائق ثم قال له ،

ألا تريد أن تعرف أين انا مسافر؟

أجاب محمود بلهفة، نعم .

قال شعيب أنا ذاهب إلى حيث ودعت حبي الأول والأخير ، إلى أسيوط الحبيبة .

ألف سؤال وسؤال مر بمخيلة محمود .

وما اسم الحبيبة ؟ سيدي سأل محمود العجوز .

لن أقول لك لإنه سر حياتي .

ودع شعيب السائق واتجه نحو المحطة، ثم اشترى بطاقة السفر إلى أسيوط.

أما محمود فلم يهدأ له بال لأن الرجل قال كلاما سمعه من قبل ، وكذلك مسافر إلى بلدته أيضا وهو لم يسبق أن تعرف عليه هناك أو سمع به . كل هذا أيقظ فيه فضولا ليعرف سر هذه دراما في نفس الوقت.

ثم ماذا سأخسر فأنا أيضا من مدة لم أزر اهلي وازور قبر المرحومة أمي .

أنتظر حتى ابتعد شعيب من شباك التذاكر، ثم اقترب إلى السيدة التي تبيعها ليسأل : إلى اين مسافر ذاك الرجل؟

إجابته بخوف وهي تضن ان محمود من الأمن، إلى أسيوط سيدي.

فقال محمود أعطني تذكرة إلى أسيوط وفي نفس القطار.

حاضر أجابت السيدة.

أخذ التذكرة ثم ذهب إلى صالة الانتظار.

كان يراقب شعيب من بعيد وكان هذا الاخير يتصفح شيء ما .

لكن محمود لم يستطع الاقتراب كي لا يتعرف عليه .

وصل القطار فركبا فيه ثم انطلق إلى اسيوط.

وصل القطار فنزل شعب اولا ثم محمود .

عندما نزل شعيب وقف أمام شجرة وصار يكلمها ويقبل مكانا محددا فيها .

انا رجعت كما وعدتك وقبل أن اموت.

كان محمود مختفيا يقف وراءه وكأنه ينتظر أحدا.

ثم جلس شعيب تحت الشجرة وهو يبكي.

ما محمود ، فكان يتسأل عن سبب بكائه وهو في سن السبعين أو اكثر بقليل؟

لم يتحمل المشهد ، واقترب منه وهو ملثم ليساله : أسمح لي سيدي ، ماذا يبكيك ؟

رفع شعيب عينيه إلى الفوق ثم أجاب : لست أنا من يبكي.

ومن اذا ؟

قلب احب وعشق فاأعدموه.

حس محمود بقشعريرة تكتسح جسده وفي نفس الوقت يحاول أن يتذكر أين سمع تلك الجملة؟

أعتذر العجوز من الشاب ، ثم انطلق يمشي ، لم يطلب سيارة أجرة ولم يكن أحد في انتظاره.

مشى حوالي كيلومترين وحينما التفت وراءه وجد محمود يتبعه بخطوات ثقيلة.

نادى العجوز على محمود فقال: أأنت تتجسس علي أم طريقنا واحدة ؟

أجاب محمود بلا سيدي فطريقتنا ربما واحدة.

إلى أين انت ذاهب يا ولدي؟

انا ؟

إلى بير الرمان .

وانت سيدي ؟

إلى نفس المكان .

وابن من تكون انت؟سأل العجوز.

انا ابن فاطمة بنت العمدة.

وقف العجوز ويداه ترتجفان والدمع في عينيه وبالكاد قال: انت ابن فاطمة؟

أجابه محمود، نعم سيدي، وهل تعرفها؟

نظر العجوز إلى محمود بعدما ازال اللثام عن وجهه بتمعن، ثم قال نعم يا ولدي أعرفها والدموع تسيل على لحيته البيضاء.

وانت من تكون يا سيدي سأل محمود العجوز؟

انا اسمي شعيب ابن الغفير الذي كان يشتغل عند جدك العمدة.
وهل امك على قيد الحياة؟
بكى محمود وبكلام يملأه الحزن أجاب : لا سيدي فقد ماتت منذ حوالي سنة.
جلس العحوز على حجر وبكى ثم قال انا لله وانا اليه راجعون.
بعد كم دقيقة وقف العجوز ليكمل السير، ثم سأل محمود، هل كان لها اولاد غيرك؟
أجاب محمود لا يا سيدي انا فقط وبعد وفاة والدي لم تتزوج لأنها كانت تحبه كثيرا.
أعرف أعرف قال العجوز.
ماذا سيدي؟ ومن أين تعرف هذا؟

ارتبك العجوز ثم قال كل القبيلة تعرف مدى حب امك لوالدك.

طلب شعيب من محمود ان يريه قلادا على عنقه . لأنه أهدى قلادا لحبيبته قبل أن يغادر البلد خوفا من بطش العمدة.

وحينما رأى قلاد محمود اهتزت مشاعره وهو يردد في داخله رحمك الله يا ملاكي، رحمك الله يا من كنت قبلة احلامي ، يا عنوان الوفاء.

وصلا إلى القبيلة ثم افترقا ليذهب كل إلى اتجاهه.

وقبل أن يفترقا ، قال العجوز: انا جئت لازور قبر زوجتي.

وفي اليوم الموالي ذهب محمود لزيارة قبر امه وليقرأ على قبرها ما تيسر من القرآن، ليجد العجوز مية وشفتاه تقبل الحجر الذي كتب عليه اسمها فوق قبرها .

عاصفة الحياة

كانت تلك الليلة ممطرة والرياح تهز الأشجار لتجعلها تعزف سيمفونية مروعة لسكان بلدة شبه جبلية جنوب مراكش .

كان الفقر في بيوت السكان شيئا طبيعيا بحيث ينام كل الأطفال مع أبويهم في غرفة واحدة ويحتمون من البرد بغطاء واحد وهو منسوج بالصوف بطريقة تقليدية في تلك المنطقة .

كان الأطفال يسمعون صوت الرعد المخيف وكأنه قنابل تهوى على القرية من السماء يشاهدون ضوء البرق وهو يرسم خيوطا نارية تجعل نفوسهم تهتز بالذعر والخوف لتجعلهم يعانقون بعضهم البعض.

يستيقظون كل صباح للذهاب الى أقرب مدرسة ليتعلموا القراءة والكتابة.

لكن في صباح ذلك اليوم لم تأت أمهم لتوقظهم كما العادة ، فناموا حتى سمعوا بكاء النساء ينبعث من غرفة أمهم التي كانت حامل وتنتظر طفلها الرابع.

استيقضوا مرعوبين ثم هرعوا في اتجاه غرفة أمهم ، لكن أباهم تلقاهم بحضنه وأبعدهم ليسلمهم إلى عمتهم التي كانت تستقبل الناس.

لم يفهموا شيء مما يحدث ولم يسمعوا إلا كلمة الله يرحمها وهم لم يفهموا ما معناها وما يحصل أمامهم من بكاء وعويل.

وصلت جدتهم من أمهم فحضنتهم وبدأت تبكي وهي تقول : رحلت عني وعنكم إلى دار البقاء أولادي .

هنا فهم علي قصد جدته وبأن أمه قد توفيت .

كان يبكي ويشد على أيادي اخوته خوفا أن يتركوه هم الآخرين لان هذا أعز ما تركته له أمه .

دفنت الأم وافترق الناس بعد الوليمة، وبقي علي واخوته مع أبيهم لمدة شهور .

وفي يوم من عطلة الصيف بدأت الدار تتزين والناس أيضا وكأن عيدا قد اقترب .

بدأ يسأل عمته عما يجري؟ وهي تتهرب من الجواب كل مرة بحجة.

إلى أن وصل الوافد الجديد ، زوجة أبيه وهي في الأبيض ممتطية الفرس والنساء ترقص وتزغرد .

كانت أخته وأخاه الصغيران لا يفهمان ما يحصل . لكنه هو كان يشعر بأنه من اليوم أصبح المنزل ليس بمنزله وربما حتى المكان في تلك الغرفة المظلمة لم تعد لجسمه النحيف مرقدا.

كان يراقب الأحداث فقط ولا ينطق بكلمة والحزن مدفون في عينيه.

مرت أيام وشهور فإذا باخ جاء بدون موعد وإذا بمعاملة زوجة أبيه تغيرت وصارت قاسية كقساوة الجو والتضاريس للمنطقة التي كان يعيش فيها.

بدأت ترسله ليرعى بدل المدرسة، وتلبسه درابيل من ثوب أبيه وتشتري الثياب لابنها فقط .

أما أخته واخيه الأصغر فكانت ترسلهما لجلب الماء على الحمار ومنعت عنهم الذهاب إلى المدرسة أيضا .

وبينما هو يرعى في ذلك اليوم قرب الطريق الذي يربط مراكش بالدار البيضاء ، توقفت سيارة لتناديه سيدة : تعالى أعطيك شيئا

اقترب دون خوف وهو يبتسم ، فمدت له السيدة تفاحة وقنينة ماء

كانت فرحته لا توصف لانه لم يأكل الفاكهة وخصوصا التفاح منذ وفاة أمه .

سألته السيدة : وهل تذهب إلى المدرسة؟

لا سيدتي ، كنت أذهب لكن زوجة أبي منعتني.

تأثرت السيدة ثم سألته عن اسمه وأين يسكن ؟

دلها على المنزل وأخبرها عن اسمه .

فما هي إلا أيام حتى وصلت مع زوجها إلى منزل ابيه .

ألقت السلام وطلبت الدخول فأذن لها ابوه وزوجة ابيه .

دخلت وجلست لتناول الشاي كما هو في العادة عند سكان المغرب كحفاوة بضيوفهم .

شربت الشاي ثم نضرت إلى زوجها ثم إلى أب علي لتقول أسمح لي أطلب منك طلبا غير عاد .

تفضلي سيدتي قال أبو علي . فأنت في بيتي ولا يمكن أن أرد طلبك إذا كان هذا لا يؤذي عائلتي .

لا لا يا سيدي، لن أسمح لنفسي أن أكون أذية لك ولعائلتك وانت من رحبت بي هذا الترحاب .

طيب ، لقد جئت لأطلب منك علي أحضنه واتكفل بدراسته وماكله ومشربه . لكن بشرط أن يذهب معي إلى الدار البيضاء انا وزوجي ، فنحن لم يرزقنا الله بولد .

سكت أبو علي قليلا وقبل أن يتفوه بكلمة قالت زوجة ابيه : لا يمكن فهو يرعى الأغنام ويجلب لنا الحطب وان رحل من سيفعل ذلك ؟

ابتسمت السيدة وهي تفهم لغة النساء وخصوصا زوجة أب وكأنها ستفقد خادما وليس ابنا ثم توجهت نظراتها إلى الأب لتقول له : سأرسل لك ألف درهم في الشهر وأنت تدبر شانك

ضحكت زوجة ابيه وعينيها يلمعان بالفرحة وهي تحاول ان تعمل اشارة لزوجها كي يوافق.

كان أبو علي حائرا ، هل سيفرح أم العكس سيحزن؟

الفرحة لإن ابنه سيذهب للمدرسة وسيعيش في عائلة ميسورة كامير ، والحزن لأنه سيفتقد فلذه كبده .

لكن السيدة طمأنته بحيث قالت : سأرسله لكم مرتين في السنة في العطل لكي تطمئنوا عليه وهو عليكم .

وافق أبو علي والدمع يجرف الغبار الذي كان على خده من كثرة الرياح الصيفية التي تهب فوق ذلك التل حيث سكن أبو علي .

حاولت أن تهدئه لكن دون فائدة ، فقلب الأب يبقى قلب أب عندي آخر طلب عندك سيدتي قال أبو علي؟

نعم أطلب ما شئت سيدي . أطلب منك أن تتركيه حتى تنتهي العطلة الصيفية لاشبع فيه النظر ولأملأ قلبي بصورته ولم يجرؤ أن يقول انه يشبه أمه بحضور زوجته التانية .

ردت السيدة : ولو اني كنت أريد أن آخذه معي اليوم ، لكنني أقدر مشاعرك سيدي وأنا موافقة .

ودعت العائلة لتعود بعد العطلة الصيفية وتأخذ علي إلى عالم وكأنه ولادة أخرى بالنسبة له.

فلا الكلام يشبه كلامه ولا المنزل الذي ظنه مسجدا للزخرفة التي توجد فيه ولجماله ، ولا المدرسة تشبه مدرسته . وحتى التلاميذ كانوا ينظرون إليه وكانه من كوكب آخر .

كانت تلك الأيام والشهور الأولى صعبة عليه جدا وخاصة حين يتذكر أخته وأخاه ويبدأ بالبكاء خفية من أمه التي تبنته حتى لا ترجعه إلى ذلك الجحيم الذي كان يعيش فيه .

قاوم علي وعمل بجهد كبير كي يتغلب على العاطفة ولكي يكون نفسه وسط طبقة ليست بورجوازية لكنها طبقة متوسطة ومثقفة

كبر علي وحصل على البكالوريا علوم ، ثم سافر إلى فرنسا ليكمل دراسته .

وبعد ستة سنوات عاد إلى أمه وأبيه الذين تبنوه منذ صغره كانت الفرحة عارمة في البيت بوجود العائلة وخطيبته ليرن الجرس فإذا بأبيه البدوي وزوجة أبيه يدخلان بالزغاريد .

كانت عائلة خطيبته من الطبقة البورجوازية إذ لم تستوعب المشهد فغادرت المكان دونما وداع .

حاول علي أن يتصل بخطيبته دون جدوى ، وبعد أسابيع سمع إنها تزوجت من ابن خالتها في الرباط .

تألم كثيرا فقرر الرجوع إلى فرنسا ليكمل حياته في الغربة فلربما ألفها وألفته .

وبينما هو يهم ليركب الطائرة سمع صوتا من الخلف يناديه : علي علي انتظرني وحين استدار وجدها هي . تردد قليلا ثم ألقى التحية وهو يسأل : ماذا تريدين ؟

لقد سألت أمك وهي التي اخبرتني انك راجع إلى فرنسا والى الأبد

وبعد ؟ أجاب علي .

اتضن أنني أستطيع أن اعيش دونك أيها الغبي ؟

ماذا تعنين ؟

لقد ألغيت خطوبتي وقلت لأهلي انني سأعيش معك رضوا بذلك أم لا !

لكن ؟ قال علي .

القرار قراري وأنا قد قررت ، أجابت .

حطت الطائرة بباريس ولم يرجعا إلا بعد خمس سنوات ومعهما بنتين ، زهرة وهو اسم أمه التي ولدته وزينب وهو اسم أمه التي ربته .

جرح من الماضي

كنت أقرأ جريدتي ككل يوم في المقهى فإذا بعجوز اقترب مني وطلب الماء ليشرب .

أذنت له طبعا ثم قلت : هل تناولت الفطور عمي ؟

ابتسم وقال عن أي فطور تسألني يا ابني؟ عن فطور الأمس أم فطور اليوم ؟

قلت : لا اليوم طبعا .

لا يا ولدي سأجمعه مع الغذاء إن شاء الله .

فهمت قصده ثم طلبت له الفطور فطلبت منه إن يجلس بجانبي .

جلس وهو يترحم على والدي ويدعي لي بالخير حتى جاءه النادل بوجبته .

تناولها برمشة عين ولو إنه لا يملك أسنانا . استغربت لسرعة أكله ولم ألاحظ دموعه التي كان يدرفها دون صوت حتى أنني ضننته يعاني من مرض ما في عينيه .

سألته وهو يهم بالانصراف قائلا : أسمح لي سيدي من أي مدينة أنت ؟ وما اسمك ؟

مدينتي وجدة واسمي أكرهه (هواري) .

أو ليس لديك عائلة ؟

بلا يا ولدي ولكنني تركتهم في الجزائر .

كيف ذلك سيدي؟ فأنت محتاج اليهم الآن وانت عجوز وإلا لما نتزوج ونلد أبناء وبنات ؟

ليتني كنت أستطيع أن أغير القدر يا ولدي .

ماذا تقصد أيها العم ؟

فحاضرنا بأيدينا إن أردنا.

الحاضر لا يكون بدون ماض ولا بدون مستقبل أجاب العجوز ، ثم استمر قائلا :

لا يا ولدي فهناك أحيانا ظروف قاهرة الله لا يعيشك فيها .

أيمكن لي أن أعرفها سيدي؟

إسمع يابني: لقد كنت من المطرودين أيام بومدين يوم عيد الأضحى من سكيكدة التي عشت فيها ثلاثين سنة بعد مشاركتي في الثورة .

بعد الإستقلال تزوجت أخت صديق لي في السلاح وخلفت معها طفلا . وعندما طردوني كان عمره خمس سنوات.

لما وصلت إلى مدينتي وجدة نكرني أخوتي لإنهم كانوا قد سجلوني في عدد الموتى وذلك كي لا أرث معهم في ملك أبي وأمي .

اشتغلت في حانة في مدينة طنجة لمدة وعندما فتحت الحدود أيام بن جديد رجعت لزوجتي وابني .

جميل وما أعادك إلى هنا أيها العجوز ؟

ضحك بحسرة فقال : لقد وجدت الضابط الذي طردني قد استولى على أملاكي بل وعلى زوجتي التي خلف معها ثلاثة أطفال وابني صار يناديه بأبي .

التقيت مع زوجتي في السوق وتظاهرت أنني أبيع الخضر وأول ما رأتني غابت عن الوعي، وعندما رجعت لوعيها توسلت إلي أن أغادر ولا أعود إن كنت فعلا أحبها وأقدر صداقتي مع أخيها .

قالت وبالحرف : ابنك كبر يا هواري ولم يعد يتذكر شيئا عنك بل بالنسبة له أبوه هو زوجي . ثم فكر في وفي أولادي الصغار ، هل تستطيع أن تاخذهم عندك هم الآخرون ؟ هل ستحبهم مثل ابنك ؟ فلم أجد بدا إلا أن أعود من حيث أتيت.

وها أنا ذا أجول الشوارع لإنني بعدما رجعت دخلت مستشفى الأمراض العقلية لمدة، ولحد الآن لا استطيع العيش أو الوقوف في مكان واحد .

فأنا حاربت الإستعمار لأحرر الجزائر ولكن الجزائر استعمرت بيتي وسلبتني أغلى ما كان عندي .

لكن هذا ليس عدلا يا سيدي أجبته.

وأين ترى العدل يا بني ؟ فالرصاصة عندما تشق صدر أحد يموت لكنها تكمل طريقها، والرياح عندما تعصف بأحد فليس هو من يختار المكان الذي سترميه فيه بل هي ، والقلب يا ولدي إذا جرح فلا يهم من جرحه بل الأهم انه ينزف داخلك دون أن تراه ولا تستطيع أن تضمده.

فأنا الآن العصفور الجريح أكمل تحليقي إلى مكان ارتاح فيه إلى الأبد بعيدا عن البشر .

وكأنني رياح الخريف تهب بقوة وتبحث عن أشجار الشر لتقلعها من الجذور وترمي بها إلى الوديان ، بل وكموج بحر هائج تبحث عن الصخور لترتطم بها لتجعلها تبكي بشدة الصدمة وهي تنتحر .

ولادة حب على متن طائرة

في قاعة الإنتظار بعدما عبر كل حواجز الأمن في مطار الدار البيضاء ليركب الطائرة المتجهة إلى موسكو.

جلس وسحب كتابا لتشيخوف وبدأ يقرأه .

وهو غارق في قرأة الكتاب ، سمع صوتا أنثويا وهو يقول: عفوا سيدي هل يمكن لي أن أترك حقيبتي معك حتى أعود؟ دون تردد أجاب بنعم وبدون أن ينظر للشخص الذي طلب منه ذلك لأن الأحداث التي كانت في الرواية أخذته للقرن التاسع عشر بكل ما كان يتصف به الرجل المتحضر من نبل ، ولم يكن قد انتقل بعد إلى القرن العشرين.

كان ذلك يوم ٢٥ أغسطس من سنة ١٩٨٧ .

مر وقتا ولم ينتبه السيد سمير إلى مدته حتى عادت السيدة وهي تشكره على موافقته الحرس على حقيبتها .

هو في الحقيقة لم يراقبها لأنه كان منغمسا في القراءة ، ولكن المشهد والحدث كان كذلك.

ابتسم سمير كجواب على لطفها وهو يرفع رأسه.

هنا تغير كل شيء، وكأن زلزالا ضرب قلب سمير فدمر كل ماضيه واصيب بامنيزيا - أي نسيان الماضي بعد صدمة.

وقع الكتاب من يده لتلتقطه السيدة الشقراء التي كانت لحين تخاطبه.

هذا كتاب لتشيخوف، لقد قرأته انا ايضا واصلت الكلام مع سمير

نعم نعم لقد قرأته بالفرنسية والآن أقرأه بالروسية لغة الأم للكاتب كي أعرف مدى الفرق بين الأصل والترجمة أجاب سمير .

وما الفرق؟ سألت السيدة الشقراء.

كالبحر والبحيرة، أجاب سمير .

ابتسمت وليتها لم تفعل. كانت ابتسامة قاتلة أسرت قلبه .

كانت مثل تلك الإبتسامة التي قرأها للتو في الرواية.

حست السيدة بنظراته التي تغيرت واصبحت نظرات إعجاب وليست بريئة فاحمرت وجنتيها ثم غيرت الموضوع بلباقة.

لكن سمير أصابته صعقة حب وإعجاب حتى أنه نسي الكتاب في يد السيدة الشقراء .

بدأ النداء على الركاب فوقفا واتجها سويا إلى الطائرة .

غير معقول قال سمير ؟ أرقام مقاعدنا جنبا لجنب ؟

جميل أجابت السيدة الشقراء . هكذا سنتعرف أكثر عن بعض.

ابتسم وهو يقول طبعا طبعا هذا قدرنا .

جلسا قرب بعضهما وتبادلا مجاملات ، ليأتي بعد ذلك سؤال السيدة الشقراء : هل أنت طالب في الإتحاد السوفياتي؟

أجابها سمير وبسرعة البرق بنعم.

وهل تدرس الأدب الروسي؟

لا أنا طالب في كلية الطب ، لكنني أعشق الأدب الروسي .

ابتسمت السيدة الشقراء وهي تقول عجبا ، عجبا .

وما العجب في ذلك سيدتي ؟ عقب سمير على تعجبها هذا .

لم أر من قبل طالبا في الطب يقرأ الرواية ليتعمق في أدب شعب بعيد عنه بآلاف الكيلومترات وأكثر من هذا ، الأدب الكلاسيكي ، ردت السيدة الشقراء .

سيدتي : أما الطب فهو علم لعلاج أجسام الناس وأما الأدب فهو علاج للروح ، أجاب سمير .

فتحت عيناها وهي تصدر صوت تعجب وإعجاب بهذا الجواب وفي نفس الوقت دق قلبها وكانما رجعت إلى الوراء بعشرة سنين حين تغيرت نبضات قلبها لأول مرة ليستقبل أو حب في سن المراهقة .

أنت تتكلم الروسية بطلاقة أكدت السيدة الشقراء.

ابتسم سمير وهو يقول شكرا سيدتي، هذا لطف منك .

لا هذا ليس إثراء أو مجاملة ، هذه حقيقة . فهناك كثيرون ولدوا وعاشوا في الإتحاد السوفياتي ولا يتكلمون بهذه الطلاقة باللغة الروسية .

هذا لإنني عندما قدمت إلى بلدكم لم اقدم لدراسة الطب فقط بل ولدراسة حضارة اغرتني منذ طفولتي . ولا يمكن أن تدرس حضارة مجتمع الا بلغته .

بدأت السيدة الشقراء اعجابا أكثر فأكثر بالشاب وبدأت الحدود تتبخر بينهما شيئا فشيئا .

هنا بدأ سمير أول سؤال . وماذا كنت تفعلين في المغرب ؟

أنا موظفة في السفارة الروسية هناك .

وما نوع عملك ان كان هذا لا يحرجك ؟ سأل سمير السيدة الشقراء.

لا ، لا يحرجني ولكنني افضل عدم الإجابة حتى نتعرف على بعضنا اكثر.

جواب ديبلوماسي قال سمير وهو يبتسم .

نعم هو كذلك أجابت السيدة الشقراء وفي نظراتها إعجابا بذكاء سمير وتقبله لتهربها .

طيب وهل انت متزوجة وعندك أطفال ؟ سأل سمير جارته في المقعد .

ضحكت السيدة الشقراء بصوت عال لترد : الا تظن ان هذا شخصي؟

نعم أجاب سمير لكنني لا أسألك عن الخصوصيات التي لا يجب البوح بها ، فكل البشر لهم حياة والحياة تتضمن هذه الأشياء البديهية. أليس كذلك؟

نعم قالت السيدة الشقراء وهي تزداد اعجابا بذكائه ولباقته.

اذا ؟

انا كنت متزوجة وعندي طفلة في السن الرابعة ولقد تركتها مع أبواي في موسكو لألتحق بالعمل في المغرب في السلك الدبلوماسي . انت تعرف أننا نتزوج مبكرا ونحن ندرس في الجامعة وليس مثلكم .

نعم نعم أعرف ذلك ، جل اصدقاء الذين يدرسون معي في الكلية هم متزوجون لأنهم يعلمون أن المستقبل مضمون ان ثابروا واكملوا الكلية ليس مثلنا ، أجاب سمير .

ابتسمت السيدة الشقراء متفهمة قصد سمير ، ثم قالت ان أردت عزمتك لأعرفك على عائلتي وبنتي ؟

اندهش سمير ولم يصدق إقتراح السيدة الشقراء ولم يحمله محمل الجد لكنه وافق نضرا لكونه جانتلمان ولكونه ارتوى بثقافة الروس .

طبعا طبعا ، هذا شرف لي سيدتي .

ايمكن ان نخاطب بعضنا بالمفرد وليس بالجمع ؟ ردت السيدة الشقراء .

وانا موافق أجاب سمير وفي داخله مئة سؤال وحيرة .

إذا اعطيك رقم هاتفي وحينما ترتاح من السفر إتصل بي قالت السيدة الشقراء له .

لن أتأخر على ذلك مادام ، أجاب سمير .

أنا الآن مادموازيل لا تنسى، أجابت السيدة الشقراء.

ههههه نعم نعم آسف أجاب سمير .

لقد بدأت الطائرة في الهبوط ، لقد وصلنا إلى مطار شيريميتيفا .

لا تنسى انتظر هاتفك وبدأت السيدة في ربط حزامها مستعدة للهبوط .

أما سمير فكان يبتسم كل الوقت ويهز رأسه غير مصدق لما يحدث .

لكنه وفي صميم قلبه كان يتمنى ذلك اللقاء الحميمي الذي تخيله طوال الرحلة.

نزلت الطائرة وتوادعا عند شرطة الحدود لإن المواطنين لا يمرون من نفس المعبر مع الأجانب .

خرج سمير وبدأ يبحث عن غير قصد على السيدة الشقراء فإذا به يراها تعانق شابا في عمره .

ظنها كانت تكذب عليه وبان الشاب زوجها أو حبيبها جاء لينتظرها في المطار.

أصيب سمير بشيء من الإحباط ، لكنه لم يلبث طويلا حتى تذكر أن لديه صديقته تنتظره هو أيضا.

وهو يغادر المطار بدأت الأسئلة تأتيه واحدة تلو الأخرى .

لماذا كذبت علي ؟ ومن يكون ذلك الشاب الذي عانقته ؟ وان كانت صريحة وليس إلا أخا أو صديقا ؟ أو.... ؟

ربما أنا أغار قبل الأوان ؟ أهذا هو الحب الذي قرأت عنه كثيرا

وبدأ سمير يضحك عن نفسه حتى قالت له صديقته أنت تضحك لوحدك ؟

لماذا ؟ لا شيء لا شيء اجابها ، فقط أحداث عابرة في الطائرة.

مرت أسابيع، وهو يتردد في الإتصال أم عدمه . وذات يوم وهو يتفسح في حديقة غوركي لمح سيدة شقراء مع طفلة صغيرة، اقترب منها فإذا بها هي . ألقى سمير التحية بالروسية وهو يقول : يا لحسن الصدف .

استدارت ويداها مفتوحتان وكأنها تعرفت على صوته ثم عانقته وقبلته على خده وهي تقول: ظننتك لن تتصل ولن أراك ثانية. لماذا لم تتصل؟

لن أكذب عليك لقد تجسست عليك عندما خرجنا من المطار ورأيتك تعانقين شابا فلم أستطع ولم أتجرأ على تسبب المشاكل لك

ضحكت ثم قالت ذلك زوج أختي فلاديمير ، جاء ليقيلني إلى بيت والدي حيث بنتي .

حس سمير بالخجل من نفسه ثم أعتذر .

أنت ستأتي معي الآن لاعرفك على عائلتي أما هذه الأميرة فهي ابنتي .

قبل سمير الدعوة لأنه كان قد افترق مع صديقته الأولى بعد خلاف بينهما .

قال سمير وهو مبتهجا ولما لا ما دمت وحيدا ولا ينتضرني أحد الا كتبي؟

وبما أن اليوم يوم سبت فلي الحق أن أرتاح قليلا وإن كان في وسط عائلي فهذا أجمل .

استقلا المترو سويا وبعد محطتين نزلا ليصعدا إلى الفوق ثم يسيرا راجلين إلى البيت .

قال سمير للسيدة الشقراء : تخيلي ، لحد الآن لم اتعرف على اسمك ؟

ابتسمت ثم اجابته: هذا ليس ذنبي، فجينتل مان مثلك هو الذي يبادر السيدة بالسؤال عن اسمها وليس العكس .

ههه نعم نعم انت على حق سيدتي الجميلة أجاب سمير .

لم تمر هذه الكلمة(الجميلة) دون التقاطها بنضرة تساؤل من طرف السيدة الشقراء .

أما اسمي فهو سهل وعندكم مثله الكثير وهو ناديا ، وأما كلمة الجميلة التي قلتها يمكنك أن تسميني بجميلة فهو أيضا اسم البنات عندكم .

اتبعت هذه الجملة بضحكة ماكرة ، مما جعل سمير يرد بابتسامة ماكرة أكثر وهو يقول : أنا عنيت الكلمة بمعناها الحقيقي .

التفتت إليه لتسأله : أفعلا تجدني جميلة ؟

نعم وجذابة أيضا أجاب سمير .

شكرا ، عقبت ناديا على الكلمات الجميلة في حقي أجابته وهي تستحيي ان تنظر اليه .

هنا سألها سمير : وانت لم تسأليني عن اسمي ؟

ابتسمت وقالت اعرفه .

كيف تعرفينه وانا لم أقله بعد ؟

لا هذا سر المهنة صديقي اجابت ناديا.

لا تخيفينني وارجع أدراجي قبل ان يقبض علي لأنني اعاكس موظفة في الاستخبارات السوفياتية قال سمير وهو مندهش .

لا تخف فانا لست من المخابرات صديقي فقط نسيت انك حصلت على التأشيرة عندنا وانا التي تحررها على الجوازات ، والصور ايضا انا من يضعها في الملف .

آه الآن فهمت أجاب سمير وهو يهز رأسه مبتسما.

انت أذكى مني صديقتي .

وهل كان عندك شك في ذلك ؟ أجابت ناديا وهي تستهزىء من سمير مازحة.

لا لا ولا ثانية أجابها ، كنت اعرف ان النساء أذكى من الرجال في مجالات شتى ، عاطيا إياها الجواب الذي كانت تنتظره منه وكانه امتحان لذكائه .

اهاه ، لقد نجحت صديقي . انت تكسب اكثر فأكثر النقاط على دفتري قالت وهي تبتسم .

أما زلنا بعيدان عن المنزل ؟ سأل سمير .

لا لقد وصلنا عند ذاك الباب الأسود هناك .

حسنا اسمحي لي أن ادخل الى هذا السوق لأشتري شيئا ما ، قال سمير . لن أتأخر ، انتظريني هنا مع الأميرة الصغيرة .

حسنا سننتظرك هنا اجابت ناديا .

انطلق كالسهم ولم يلبث كثيرا حتى عاد بباقتين من الزهور ، ومن الخلف مد لها باقة قبل ان تستدير هذه لك .

استدارت ووجهها مبتهج بالفرحة لتقبله على شفتيه دون أن تحسب حركتها أو ربما متعمدة لكثرة الفرحة والسعادة التي ادخلها سمير على قلبها قبل ان تتدارك الموقف وتطلب السماح منه .

ابتسم سمير ثم قال : السماح على ماذا ؟

على القبلة اجابت ناديا.

هنا ضحك سمير فقال: إن اردت ان تضيفي مئة فأنا مستعد .

لا تحلم صديقي ليس بهذه السهولة .

ولمن الباقة الثانية من الزهور ؟ سألت ناديا سمير .

ههههه انسيت اننا معزومين ؟ وفي ذلك المنزل أصحابه ، بل صاحبته ؟
هناك فقط امي ردت ناديا وهي تستفسر عند سمير نيته .
فكان الجواب ضربة قاضية لها حيث قال : هي أمك أما بالنسبة لي فهي سيدة أدخل بيتها لأول مرة معزوما ، إذا هي ملكة هناك وللملكة هدية قيمتها قيمة مكانتها في البيت .
انبهرت ناديا من هذا الجواب الذي لم تكن تنتظره من أجنبي فردت : أنت تعلمت الكثير عن مجتمعنا وتقاليدنا أيها الصديق الأجنبي ثم تبعتها بالضحك .
ألم أقل لك انني أصبحت واحدا منكم ؟ رد سمير ضاحك ايضا نعم نعم صديقي هذا واضح جدا أجابت ناديا .
أنت لا محالة ستغزو قلب أمي من اول لقاء ههههه.

انا اريد قلبا اخر أصغر من قلب امك بحوالي سبعة وعشرين سنة إذا كان ممكنا ؟

أنت ذكي صديقي وتريد كثيرا قالت ناديا.

ذكي ربما فيها نقاش .

أما انني أطلب كثيرا؟ فهذا يتوقف على جود وكرم صاحبته.

انت داهية صديقي في طلب ود النساء ، قالت ناديا .

هنا رن الجرس لتفتح الباب سيدة في عقدها الخمسين أنيقة وحروف الجمال لم تخفيهم بعد التجاعيد ولا الشيب الذي بدأ يستبدل شعرها الأشقر .

ألقى التحية سمير على السيدة ومد لها باقة الزهور وهو يقول هذا لك سيدتي .

فرحت بالهدية وهي تقول شكرا تفضل في بيتنا فأنت مرحب بك متى شئت .

ألم اقل لك ان أمي ستغرم بك ؟ عقبت ناديا وهي تضحك .

لا تخجل لا تخجل بدل حذائك وتفضل للصالون حيث نستقبل الضيوف .

سأدخل أميرتي للحمام لتستحم وأعود لك بعد عشرة دقائق .

أمي أمي ارجوك تكفلي به قبل ان أعود واطعميه حتى لا يقول عنا بخلاء ، ففي وطنهم يطعمون الضيف ولو لم يكن معزوما مثلنا تماما.

لا تريني ماذا سأفعل بالضيف فأنا التي ربيتك ولست أنت أجابت الأم .

ضحكت ناديا وهي تتجه نحو الحمام مع ابنتها المدللة والتي لم تكن تريد الإستحمام .

ناولت السيدة سفيتلانا سمير فنجان قهوة وبيسكويه وهي تقول لا تستحيي يا بني فإن أردت شيئا آخر أحضره لك .

نعم أجاب سمير .

وماذا تريد ؟

اذا كان ممكنا كأس ماء بارد . فنحن نشرب القهوة مع ماء بارد

ضحكت السيدة سفيتلانا وهي ترد : هذا فقط ؟

ظننتك ستطلب لي شرابا أو جعة وانت من بلد مسلم .

ضحك سمير وهو يقول انا مسلم لكنني اشرب هذه الأشياء وعندي في هذا رأي آخر ، وإن كان ذنبا فرب العباد غفور رحيم

أنت دبلوماسي يا بني حتى مع الله ردت السيدة سفيتلانا وهي تضحك .

لكن لا عليك سننتظر زوجي وعند العشاء سيكرمك هو بنفسه من شيء يحتفظ به فقط للضيوف المميزين .

ابتسم سمير في نفس الوقت الذي دخلت فيه ناديا عليهم في الصالون وهي تسأل: ماذا تفعلون هنا بدوني؟

لا شيء نشرب القهوة ونتحدث أجاب سمير.

عني ؟ سألت ناديا.

ومن يستطيع أن يتحدث عن المخابرات رد سمير ضاحكا.

ثم قالت السيدة سفيتلانا: انت على حق يا بني وكأنك تعرفها من زمان . فلا أحد يستطيع أن يقول كلمة ولا تسمعها هههههه أكملت السيدة بضحكة مهضومة.

ضحكت ناديا وسمير معها وفي عيني ناديا عتاب لأمها وكأنها تفشي أسرارها.

دعك من هذا يا ابنتي فهو سيعرف آجلا أم عاجلا أكملت السيدة سفيتلانا حديثها ثم قالت: سأذهب لأجهز العشاء فوالدك قد يصل من حين لآخر.

أما أنت فرحبي بضيفك عزيزتي.

ذهبت ناديا لغرفتها فأتت بألبومها لتري سمير صورها في المدن والبلدان التي كانت فيها أو عاشت فيها بحكم أن والدها كان دبلوماسيا أيضا .

انت كنت رحالة عقب سمير وهو يبتسم.

نعم نعم وما زلت كما ترى اجابت ناديا.

لقد رن الجرس أظنه أبي سأذهب لأفتح الباب.

انطلقت بسرعة وفتحت الباب ، وهي تقبله كانت توشوش في أذنه قائلة: عندنا ضيف اجنبي.

لا تحرجه بأسئلتك المعهودة أرجوك.

ابعدي عني انا اعرف كيف استقبل الضيوف أجابها أبوها بصوت شبه غاضب.

دخل إلى الصالون ومد لسمير يده القوية كيد سطالين وهو يصافحه ويرحب به .

سلم عليه سمير بأدب وبابتسامة عريضة.

تفضل يا ابني قال الأب لسمير وهو يقدم نفسه: أنا اليكساندر اليكسيفتش.

شكرا سيدي وانا سمير من المغرب ، طالب كلية الطب بموسكو.

أول ما جلس نادا على زوجته : سفيتلانا اتيني بالقنينة .

اية قنينة اجابته؟

ذات خمسة نجوم أجاب اليكساندر.

لم ينتظروا كثيرا حتى امتلأت الطاولة بالأكل والشرب وكانت القنينة ذات الخمسة نجوم تتوسط الطاولة.

سقى السيد اليكساندر ضيفه ثم ابنته ثم زوجته وهو يقول: الشرب النبيل للنبلاء.

وقبل أن يرفع كأسه أوقفه سمير ليقول طوست:

الشراب النبيل في بيت النبلاء .

نظر السيد اليكساندر إلى ابنته وهو يسأل من اين اتيت بهذا الرجل؟

انه روسي بمعنى الكلمة. شربوا وتناولوا العشاء ثم بدأوا في الغناء .

وحين بدأ سمير في غناء أغنية مشهورة عند الروس وهي تطلب من الصقيع والثلج أن لا يهلك رجلا في الخلاء لانه عنده امراة جميلة في انتصاره في البيت ، هنا وقف اليكساندر ليقول: انت لست مغربيا بتاتا ، بل روسيا ومن أعماق أراضي روسيا يا ابني وأنا أقبلك زوجا لابنتي.

نظرت إليه ناديا وهي خجولة لتقول لأبيها : أبي أرجوك لا تحرجني وتحرج الضيف . فنحن أصدقاء فقط.

كل شيء يبدأ بالصداقة طفلتي، أجاب اليكساندر وهو يشرب آخر جرعة من الفودكا.

قال الاب: لا بأس سأذهب لأنام فلقد تعبت اليوم تصبحون على خيرهنا وقف سمير ليقول : أنا أيضا أستودعكم لإن الوقت متأخر والمترو يوشك أن يتوقف عن السير ، فلم يتبق سوى ساعة من الزمان كي أصل إلى بيتي. ودع سمير العائلة إلا ناديا التي أصرت أن ترافقه إلى باب العمارة. وبينما هما في المصعد ارتمت عليه بقبلات كلها عشق وحب ومشاعر لم يحس بها سمير من قبل .

كانت تلك القبلات بداية قصة حب استمرت لسنين .

كانت تلك القبلات كبذور أزهار تفتحت بين شخصين التقيا صدفة واحبا بعضها بعدما قلص سمير المسافة بين حضارتين واستطاع أن يغزو قلوب وعقول الناس بتفتحه وعطشه لثقافة مجتمع يبعد عن وطنه بآلاف الكيلومترات لانه كان يؤمن بان الحرف جسر ليس فقط بين الشعوب وإنما حتى بين القلوب .

الكاتب والمجنونة

كان يتجول كالعادة في حديقة ليست ببعيدة عن بيته وفي يده رواية.

وهو يمشي تحت ظل الأشجار ويحاول أن يجد مكانا هادئا ليجلس فيه ويكمل قراءة الرواية استوقفه مشهد غريب شيء ما.

سيدة جميلة في عقدها الثلاثين وهي تكلم الأشجار وتحاورها مغيرة الملامح والمكان وكأنها فوق خشبة المسرح للمجانين جلس على أول كرسي وجده مقابل السيدة، نسي الرواية التي من أجلها جاء إلى هنا وصار يتابع حركات السيدة الجميلة وحوارها الذي كان يشده أكثر فأكثر.

ومن بين الجمل التي قالتها السيدة للشجرة وهي غاضبة : لما ترفضين أن تأويني فوق أغصانك بينما الذئاب تحوم بي هنا في الأسفل ؟

كاد احمد ان يجيب مكان الشجرة ، لكنه استدرك نفسه وجلس كي لا يقاطعها.

ثم واصلت الحوار مع الشجرة تلو الشجرة إلى أن استنزفت قواها وصوتها وهي تصرخ فوق حجرة وتقول: انا ساثور عليك ايتها الأشجار وساقطعك غصنا غصنا وساجعلك حطابا للنار .

فأنت لا تصلحين لشيء إلا للنار لتدفئة روحي اما جسدي فبسببك نهشته الذئاب .

ثم عانقت شجرة يابسة وبدأت في البكاء.

وقف السيد احمد وبدأ يصفق وكأنه في المسرح ناسيا انه في الهواء الطلق وأنه المتفرج الوحيد .

لم تلاحض السيدة من قبل أن هناك من كان يتابع عرضها لان المارة كانوا يضنونها مجنونة فلم يعيروها اهتماما ، بل كانوا يكملون سيرهم مستهزئين من المشهد .

الا السيد احمد الكاتب والصحفي الذي لم يكن ليترك هذه اللوحة تمر دون اهتمام .

نظرت اليه وهي تبتسم وكأنها تناديه ليقترب.

خطى خطوتين إلى الأمام ثم طلب الإذن بالإقتراب بعد التحية وهو يبتسم.

قالت له : تفضل سيدي.

اقترب بخجل وهو يثني على ما رآه من فن في كلامها وحركاتها ورقصاتها على الهواء مع الأشجار الجامدة .

هنا أوقفته غير راضية عن كلمة جامدة ، فقالت عفوا سيدي فالأشجار ليست جامدة بل تحس وترقص احسن مني ومنك .

تعجب احمد من كلام السيدة ، ثم تابع حركات أصابعها وهي تشير إلى الفوق وتطلب منه أن يرفع رأسه إلى قمة الأشجار ليرى فعلا انها ترقص مع الهواء بل وتصدر موسيقى لحنها هادئ ورومانسي.

اقترب وطلب الجلوس بجوارها فأذنت له بذلك.

بادرها أحمد بسؤال عن اسمها؟

إسمي ايمان ، وانت ؟

انا أحمد .

نظرت اليه متفحصة وجهه ويديه فلاحظت أن وجهه يحمر بالخجل لأنه لم يتعود ان يعاكس ويجالس النساء في الفضاءات العمومية .

سألته وهي تأخذ من يده الرواية دون إذن مسبق وماذا تقرأ ؟

آه ، هذه رواية للكاتب اللاتيني كويلهو.....

أنا أيضا معجبة بكتاباته أكملت إيمان حديثها .

نعم انه يكتب بأسلوب جد مفهوم وبسيط .

وأنت سيدي ما عملك ؟

أنا صحفي وكاتب أجاب أحمد .

في أي جريدة تكتب ؟

لا ، الآن اعتزلت الصحافة وتفرغت للكتابة.

ومذا تكتب ؟

أنا اكتب القصص القصيرة.

وما هي آخر قصة كتبتها؟

قصتك انت .

كيف ؟ انت لم تتعرف علي إلا لدقائق وكتبت عني قصة ؟

نعم كتبتها في ذهني وغدا ان قبلت ان أعزمك على قهوة أهديتها لك لتكوني أول من يقرأها.

حسنا أقبل دعوتك بكل سرور لأنك جعلت الفضول يغريني .

لن تندمي ، فموعدنا غدا في مقهى الشعراء قرب كنيسة العذراء.

أعرفها ، ولكن في أي وقت ؟

اختاري انت الوقت وأنا سأكون في الموعد.

الساعة الخامسة مساء تناسبك ؟

موافق فاليكن .

ألن تطلب مني رقم هاتفي؟ سالت إيمان .

ولما ؟ بما أننا سنلتقي غدا.

ضحكت وهي تستهزىء شيء ما من أحمد ومن غرابة تصرفاته الغير العادية.

طلبت الإذن وانصرفت ، بينما أحمد كان يرافقها بنظرات خجولة وكأنه يرسم جسمها بعينيه في الفضاء وهي تختفي بين الأشجار . وبدون أن تدري أخذت عقله معها .

اختفت بعد دقائق عن نظره .

التفت حوله فلم يجد الرواية التي كان ينوي قراءتها.

ضحك من نفسه وهو يردد كم انا غبي وأحمق .

لقد سرقت المجنونة روايتي وانا الذي كنت اضنها ممثلة.

ههههههه أنهض من هنا ايها التافه ، قال لنفسه وهو يمشي بسرعة وكأن أحدا يتعقبه.

بل كانت مشية غضب.

وصل إلى بيته وكان الظلام قد كسى السماء فتناول العشاء وشرب الشاى وهو يضحك من نفسه ويستهزىء .

أوى إلى فراشه وبين يديه ديوان شعري لأحد أصدقائه من شعراء مصر .

وبينما هو يقرأ أحد القصائد توقف وكأن عطبا ما حصل في دماغه ، ثم انهمرت عليه أسئلة غريبة ومحيرة .

ما الفائدة من سرقة رواية ثمنها قليل ؟ لو طلبتها مني لكنت أهديتها إياها ؟

وماذا عن غد ؟ هل ستأتي أم لا ؟

وكيف ستأتي لتضع نفسها في موقف حرج بعدما سرقت روايتي؟

لا ، ربما هذا مقلب منها كممثلة؟

ربما ربما . وماذا سأخسر إن ذهبت إلى الموعد ؟

لا شيء . ان هي جاءت حسن وان لم تأت سأشرب قهوتي كالعادة وأعود إلى بيتي .

لكن وعدتها بأن أسلمها القصة التي سأكتبها عنها .

هناك مشكلة ، كيف سأختم القصة؟

سأكتبها وساترك الخاتمة لتكتبها هي . نعم وستكون فرصة لي لأراها مرة ومرة .

هذه السيدة ليست كباقي السيدات . حتما فيها شيء غامض وسأكتشفه.

في اليوم التالي وفي الوقت المحدد كان أحمد جالسا في بهو المقهى يشرب قهوته ويتصفح الجرائد ، فإذا بصوت ملائكي يلقي التحية وفي يدها الرواية.

ابتسم أحمد وهو يرد التحية . مدت يدها لتسلم عليه واليد الأخرى تمده بالرواية وهي تقول له : عفوا لقد أخذت منك البارحة الرواية دون أن أعي . فقط لما وصلت إلى البيت أدركت انني سرقت منك روايتك .

ابتسم أحمد ثم قال : ليس الرواية فقط قال لها مازحا .

عفوا ؟

لا عليك فعندي روايات أخرى لم أقرأها بعد . هل قرأتها ؟ تابع أحمد.

نعم وانا كتبت لك رأيي بداخلها لكن لا تقرأه الآن رجاء .

حسنا رد أحمد ثم تقاسما الحديث والآراء في المسرح والأدب والرواية وحتى في الحياة .

تصافحا ليودعا بعضهما ثم قال : ألا تريدين رقم هاتفي؟
استدارت مبتسمة لتقول له إنني أعرفه ، لكنك انت من ستتصل أولا ، ثم ذهبت .
لم يعي احمد في الحين كلامها فانصرف. وهو في الطريق صاح : ويل لي وكيف سأتصل بها وانا لا اعرف رقم هاتفها ؟ لقد نسيت حتى ان اعطيها القصة التي كتبتها عنها البارحة ووعدتها بها .
الهذه الدرجة سحرتني هذه المجنونة ؟
ضحك من غبائه ثانية وهو يهز رأسه .
عندما وصل إلى البيت تناول عشاءه وحضر الشاي كعادته ليجلس على أريكته ليكمل قراءة الرواية فإذا به يفاجأ برقم هاتفها على أول صفحة وكلمة شكرا على كل ثانية قضيتها معي ، مع قبلاتي .

هنا دق قلب أحمد ليكسر الساعة والدقائق والثواني وهو يطرد الخوف والخجل ليتناول الهاتف ويرسم ارقام هاتفها بحركات رسام متلهفا لسماع صوتها و ...

كيف قهر اليتيمُ الفقـرَ والجهلَ ؟

طفولتي كانت في بادية أمازيغية ، جبلية شمال المغرب .
كنت اذهب الى المدرسة بعد مضي سنين في حفظ القرآن نظرا لبعد المدرسة الوحيدة التي بناها المستعمر الإسباني في المركز . وكان ابن خالي اليتيم من ابيه يزورنا من حين لآخر، ففي فصل الشتاء يساعد اخي في حرث الأرض ، أما في فصل الصيف فكان يساعده في الحصاد .
كان أحمد الزياني يعشق أغاني فريد الأطرش لما تحويه من حزن وحرمان ، لكنه كان أمي لا يعرف لا الكتابة ولا القراءة ، لكن كان يتقن عزف الناي .
ذات مرة وانا اجالسه طلب مني أن أعلمه الكتابة والقراءة فقبلت التحدي - لأنني كنت أعزه كثيرا - وكان بالمقابل يعزف لي على الناي نغمات جزائرية حزينة .

فبدأت أعلمه الحروف ثم الكلمات ثم الجمل، وكنت اضحك كلما كتب كلمة بحروف متقطعة وهو يرد علي و يقول سأصير شاعرا ومغنيا وسترى .

كنت اشجعه كي يكد أكثر ويتعلم بشغف.

مرت سنة أو سنتين بعدما انتقلت الى مدينة الدار البيضاء لاستكمال دراستي ، ولما عدت في عطلة الصيف أخبروني انه هاجر إلى هولندا.

ظننت بعدها انه اختار ان يعيش مثل كل المهاجرين بين عمل وعائلة وسيكتفي بما تعلمه لقراءة القرآن وكتابة الرساىل .....

لكن وبعد مرور خمس سنوات التقيته فأخذنا في الحديث بعد عناق الشوق وإحياء الذكريات.

ثم فاجأني بقوله ، هل تعلم كم قرأت من الكتب والدواوين؟
كنت اظنه يمازحني، فقلت كام ؟
أجابني فبدأ يحصي لي الكتب بالعناوين والدواوين بالعناوين بل وحتى كتب فلسفية إغريقية ، فذهلت وقلت له حان الوقت ليعلم التلميذ معلمه.
ضحكنا قليلا ثم قال ليس بعد ابن عمتي ، لقد وعدتك أن أكون شاعرا وأنا بدأت في كتابة أول قصائدي .
قلت له بالتوفيق وأنا هذه المرة أخذت كلامه محمل الجد.
تمر سنتين وصدر أول ديوانه وترجم إلى اللغة الهولندية ثم التاني والثالث والرابع.
بل وبدأ يشتغل ويلقي محاضرات في الأدب الامازيغي في جامعة روتردام .

كان آخر مرة رأيته فيها حينما ذهبت لأزور أمه المريضة قبل ثلاث سنوات . عانقني وقال : يا ابن عمتي ، الآن يمكنك أن تفتخر بتلميذك لأنه انتصر على الجهل لان الجهل كان أضعف من إرادة يتيم أمازيغي مهمش .

ضحكت وقلت له كنت أعرف أنك ستنتصر لأنك انتصرت على الفقر والتهميش ، لأنك موسيقي

والموسيقي لا ينهزم مهما هزته العواصف.

البصيرة

دخل ذلك الفتى الأسمر إلى القاعة وهو يلقي التحية كما هي العادة في بلده دون أن ينتبه للأستاذ الذي كان يلقي الدرس أمام الطلبة .

التفت الأستاذ ليقول للوافد الجديد الجديد ، عد من حيث أتيت فأنت جئت متأخرا وقاطعت الدرس بتحيتك هذه .

جلس الطالب دون أن يكترث لما قاله الأستاذ ، مما جعل هذا الأخير ينفعل ويرفع صوته ليأمره بترك القاعة والا طرده من المؤسسة.

فتح الطالب محفظته ليأخذ آلة السمع ويضعها في أذنه وهو يبتسم للأستاذ وللجميع .

عفوا سيدي ، ماذا قلت ؟ قلت اخلع نظاراتك السوداء وأنت في القسم يا قليل الأدب . سيدي ما وراء نظاراتي ظلام ، فهل تريد أن تنير ظلامي ام تريدني أن اتقاسم معك الظلام ؟ اقترب الأستاذ من الطالب الجديد وأخذ نضاراته ثم اتجه الى المنصة ليكمل درسه وهو يرتدي نظارات الطالب الجديد . وعندما سأله الطلبة في آخر الحصة عن سلوكه هذا ، أجابهم قائلا : كوني أسأت الظن في تلميذي فأنا من يستحق أن يطرد من القسم ، وبما أنه علمني درسا في الأدب وهو لا يبصر فلربما نظاراته قد تعلمني أن أرى ما وراءها من نور ورقي الأشخاص قبل أن أحكم عليهم ظلما. ثم اقترب من الطالب الجديد ليقول له وهو يمد له نظاراته ، شكرا لك لانك جعلتني أرى ما لا تراه العين المجردة في الإنسان

إغتيال الكمان والناى

تحت الأرض في ممر ميترو موسكو وسط المدينة العتيقة - ارباط - حيث كنت أمر كل يوم وانا راجع من الدوام ،كنت استمتع بعزف رجل على الناي مع شابة ترافقه بالكمان كانا من ينابيع سعادتي وانا مقيم ادرس هناك وربما لست لوحدي حيث كنت أرى نفس الوجوه وبأعمار مختلفة.

مرت أسابيع وشهور وأنا أرتوي بتلك الموسيقى التي تغوص إلى أعماق الروح لتجعل القلب يرقص ويبكي في نفس الوقت.

ذات يوم ممطر خريفي وانا انزل الدرج وعيناي تبحثان عن الرجل المسن ورفيقته وكأنني ادخل إلى مسرح بولشوي قبل العرض الموسيقي صدمت بمكانهما مليء بالورود وصورهما وهما يعزفان.

وقفت للحظة كي استوعب المشهد وافهم ما حص ؟ وانا اتفحص المكان حتى فجاءني شرطي وهو يستفسرني عن سبب وقوفي هناك ؟

استدرت بهدوء لأسأل عما جرى للعازفين، ولما ليسا هنا كعادتهما؟

نظر إلي الشرطي بتقاسيم حزينة وهو يتأسف قائلا : لقد قتلهما شابان ليلة أمس وهما يحاولان سرقة ما جمعاه من النقود .

نزلت دمعات على خدي وكأنني افتقدت أحد اقرب وأعز الناس رغم انني لم أصاحبهم بل ولم أكلمهم يوما ما .

كانا يهذيان لحظات سعادة لكل من كان يومه متعبا أو حزينا ، وكانا يضربان موعدا لمحبي موسيقاهما في الغد مساء وهما يبتسمان كلما وضعت أمامهما قطعة نقود . بل وكلما صفق لهما الجمهور الذي ياتي ويقف امامهما

وكأنه يشحن روحه وقلبه بشيء من جمال وإبداع الانسانية وهي جمال الموسيقى.

شابان قتلا من أجل قليل من المال ليس فقط موسيقيان بل الاف القلوب التي كانت تأتي هنا لتسقي روحها بجمال الألحان ورقي العزف كي تعود إلى بيوتها بشيء من السعادة التي منحاها لها عازفين بثمن قليل لكن بقلب سخي .

لم يكن بيدي ورد لأضعه في المكان لكنني أخذت ورقة وقلما لأكتب التالي : لا تحتاج الإنسانية للكثير كي تسعد ، لكن قتل ناي وكمان يمكن أن تحزن الانسانية كلها . ثم ألصقت الورقة على الحائط .

في صباح اليوم التالي وجدت آلاف الأوراق مثل التي تركتها لكن بعبارات شكر للفقيدين و معزوفات حزينة من لحنهما .

القصة الخامسة

البوم

وسط جبال الأطلس بالمغرب الأقصى ، كانت تعيش بوم ، وكانت محط شؤم للسكان.

كانت كلما اقتربت من منزل أحد السكان ، طردها خوفا من أن يصيبه مكروه .

استمر الحال على ما هو لعقود ، أو ربما لقرون ولم تتغير العادات عند أهل المنطقة.

كان هناك طفل راع بالقرية ، يرعى أغنامه في الغابة لاحظ تردد البوم على جذع شجرة .

اقترب الراعي من المكان ، فرأى صغار البوم في عش في جذع الشجرة .

ومنذ تلك اللحظة ، بدأ الطفل يتردد على المكان ، ويجلب لها الطعام كل يوم، والبوم تراقب صغارها من بعيد خوفا عليها من الطفل الراعي ، حتى اطمأنت اليه مع مرور الوقت.

ذات ليلة بينما الكل نيام ، شب حريق في الغابة ، التي كانت تحيط بالقرية و كأنها تحاصرها . هربت كل الحيوانات بعيدا عن الحريق إلى الضفة الأخرى من النهر ، وحملت البوم صغارها الى مكان آمن ، ثم عادت ، وبدأت تحلق فوق القرية ، وهي تبعث أصواتا مزعجة حتى استيقظ السكان ، ورأوا لهيب النار يقترب من قريتهم .

جمعوا أولادهم وماشيتهم ، وهبوا مهرولين بعيدا ، لكن كان يصعب عليهم ، تحديد الممرات السالكة لشدة الظلام . وكلما اتجهوا صوب النار ، كانت البوم تسبقهم ، لإرشادهم إلى الوجهة الأخرى، حتى بلغوا بر الأمان وعبروا النهر.

فرح السكان الا الراعي ، الذي كان يبكي بحرقة ، لأن صديقته البوم احترقت ، وهي تحاول ان تنقذه وعشيرته.

كان الطفل يرعى في الضفة الأخرى من النهر ذات يوم ، فإذا به يفاجأ بثلاثة بومات ، تحط على غصن شجرة ، وتقترب منه دونما خوف. تعرف عليها الراعي ، وبدأ يناديها بأسمائها التي كان يحلو له أن يناديها و تعودت على ذلك : (الصداقة الاخلاص والتضحية).

كانت تأتي إليه ، محلقة لتحط على يده ، ورأسه ويطعمها ، ويلاعبها ، كلما بلغ السفح حيث كان يرعى ماشيته. ومنذ تلك الحادثة استأنس أهل القرية بالبوم ، بل صاروا يتفاءلون به.

هدية الفجر

في يوم بارد ممطر وجد عبد الله سلة في باب المسجد عند الفجر وهو ذاهب ليصلي صلاة الفجر جماعة كعادته.

كان عبد الله انسانا بسيطا يعمل في أحد منازل الاغنياء في حي من احياء الدار البيضاء الراقية .

بقرب من ذلك المسجد يوجد مأوى للمتخلى عنهم اي دار الخيرية كما تسمى بالعامية المغربية.

كان عبد الله انسانا رهيف الإحساس وحنونا مع كل الناس بل وحتى مع الحيوانات نظرا لتربيته الصحراوية الجنوبية التي تقوم على قيم العشيرة والدين السموح .

اخذ السلة ودخل بها المسجد ليقصد الإمام . وما ان وصل اليه اخبره بأنه وجدها امام باب المسجد . فما كان من الإمام الا وان صار يصرخ على عبد الله وهو يعاتبه بل ويوبخه لانه ادخلها إلى المسجد ليحميها من البرد ولم يتركها حيث كانت حتى تأتي الشرطة لتجنب المشاكل . فما هي الا لقيطة بالنسبة إلى الإمام ، بل ومصدر وجع الرأس مع الشرطة بعد ذلك .

امر الإمام عبد الله بالخروج من المسجد بل ولم يتركه ليصلي جماعة مع الناس ويأخذ معه الطفلة التي لا صوت لها سوى البكاء .

خرج عبد الله من المسجد ليتجه نحو كوخه الذي بناه له سيده في الحديقة ومنع عليه ان يأتي بعائلته إلى هناك كي لا يكونوا عبئا عليه في السكن والمأكل .

أول ما سمع مشغله وزوجته صوت رضيع في الحديقة حتى نادى على الحارس عبد الله ليسأله عن مصدر الصوت .

ولما حكى له عبد الله القصة خيراه بين الإثنين: إما ان يتخلص من الطفلة أو يرحلا من منزلهما ، ومعناها التشرد بالنسبة لعبد الله .

رجع لكوخه منهزما وهو محتارا في أمره .

لم ينم بعدها بل صلى ركعتين وجهز فطوره ثم ناول بعض الحليب للطفلة . غسل لها والبسها بعض ثيابه الداخلية فنامت بعض ساعات .

وقف عبد الله أمام نافذته وهو يفكر في حل المعضلة التي وضع نفسه فيها فما كان امامه من حل سوى أن يتجه إلى اقرب دائرة للشرطة ليسلمهم الطفلة ويحكي القصة من ألفها إلى ياءها والحزن باد على وجهه .

سألوه ثم أغلقوا الملف ليخبروه بعد اسبوع انهم وجدوا لها مكانا في دار الايتام القريبة من مسكنه ومن المسجد .

فرح عبد الله كثيرا لانه إطمأن على صوفيا وهذا هو الإسم الذي سماها به ، وثانيا لانها ستكون قريبة من سكناه وعمله اي يمكن أن يزورها وقت ما شاء .

مرت ايام وشهور وهو يزورها كل يوم جمعة وهو اليوم الذي يصادف يوم اجازته .

كانت كلما راته تأتي جريا وتعانقه اما هو فكلما رآها كانت تغمره فرحة ممزوجة بالشفقة وحرقة الحرمان الذان عاشهما في صغره وهو يتيم من أبيه في سن مبكرة.

كبرت صوفيا لتلتحق بالمدرسة القريبة ،

لكن القانون لا يسمح للأطفال ان يدخلوا المدرسة ان لم يكن لديهم اسم الأب والأم والكنية فقرر عبد الله ان يتبناها ويسجلها باسمه دون إخبار أحد . بل وحتى زوجته التي تسكن بعيدة مع اولاده في الجنوب لم تكن لتعلم .

مرت سنين وكانت صوفيا تكبر وتتقدم في الفصول وهي تظن أن أبيها هو عبد الله الحارس .

كانت لعبد الله عند مشغله مكانة خاصة بحيث كان لا يرفض له طلبا لمعزته عنده . فعبد الله إنسان ثقة ومخلص .

طلب عبد الله من مشغله أن يتركها تزوره كلما اتيحت لها الفرصة .

لم يستطع رفض هذا الطلب لعبد الله ، ثم فيه اجر لكليهما .

كانت صوفيا تناديه بأبي عبد الله وكان هذا الأخير يجد في مناداتها هذه بأبي تعويضا لحنان أبناءه الذين يعيشون بعيدا منه بمئات الكيلومترات والذين لا يراهم الا مرتين في السنة ، اي في عيد الفطر وعيد الأضحى . صوفيا كانت مصدر الفرحة والعيد لابي عبد الله .

بل وكثيرون من سكان الحي كانوا يعتقدون انها ابنته نظرا للعناية التي كان يحيطها بها وللحب الذي كان يغدقها به وكأنه فعلا اباها ؛ بل وأحن أب .

كبرت الطفلة وصارت شابة فحازت على البكالوريا علوم بعلامة امتياز . كان عليها اذا ان تغادر دار اليتامى لأن سنها تجاوز السابعة عشرة.

فالقانون المغربي أو الداخلي لدور اليتامى لا تقبل أطفالا اكبر من هذا السن ولتجد نفسها وابي عبد الله في مأزق .

فما كان من هذا الأخير الا ان يطلب من الحاج عمر مشغله بأن يسمح لها ان تعيش معه في كوخه لتتابع دراستها في كلية الطب.

كان للحاج عمر طفلين ولكن ولا أحد منهما توفق في المدرسة مما خلق عند امهما حالة من الحسد والغيرة فرفضت ورفض المشغل طلب ابي عبد الله . كانت صدمة لابي عبد الله ان يسمع من مشغله هذا الرفض .

كان قد تقدم في السن ولا يقوى على التعب ، لكنه قرر الرحيل من عمله عند الحاج عمر .

كان هذا القرار صعبا وحزينا للاثنين لكن للحاج عمر المشغل أكثر لأنه لم يضع منه صديق العمر ورجل الثقة فقط بل ولأنه حس بالذنب وهو يرفض أول واخر طلب لصديقه ورفيق العمر لكونه سمع كلام امرأته التي دفعته لذلك ولم يسمع لضميره .

بحث ابي عبد الله عن عمل قرب كلية الطب ومسكن بسيط ولو غرفة فوق السطوح .

وفعلا وجد عملا في مخبزة وغرفة للسكن فوق سطح نفس المخبزة وفرها له مشغله الجديد احسان منه في حي مجاور لكلية الطب .

اخذ ابنته التي تبناها ورحل . وصل الخبر عند زوجته عن طريق زوجة الحاج عمر . واول ما سمعت بالخبر وان لديه بنت طلبت منه الطلاق ظانة انه فعلا تزوج امرأة اخرى وخلف منها طفلة .

حكمت المحكمة غيابيا بطلاق زوجة ابي عبد الله منه لانه لم يحضر المحاكمة نظرا لعمله الذي كان يتطلب منه الحضور يوميا ولو كان مريضا ولكبرياء هذا الرجل المسن الذي تجرأت زوجته ان تجره إلى المحاكم . فهذا بحد ذاته عند سكان الجنوب تمردا للمرأة عن زوجها لتمرغ كرامته أمام أهله . ثم كيف سيترك ابنته صوفيا وحيدة ولن تجد عند عودتها إلى البيت اباها الذي بالنسبة لها الأوكسجين الذي تتنفسه .

عاش ابو عبد الله تلك السنين حزينا لانه حرم من رؤية أبنائه الحقيقيين دون أن يظهر لصوفيا حزنه . فأبو عبد الله كان ضحوكا ومرحا ولا يثقن اضهار الحزن حتي في أحلك الأوقات .

كلما عاد ابو عبد الله من العمل بعد صلاة العشاء تقابله صوفيا بعناق حار ثم تقبل يديه وجبينه ليقول لها جملة وكأنها حلوى حرمت منها في صغرها وهي : الله يرضي عليك يا بنتي !!! وقبل أن ياتي ليتناول وجبة العشاء معها كان يصلي ركعتين حمدا لله على نعمه وليدعو معها بالنجاح في دراستها وحياتها. وقبل أن ينام كان يحب أن ينصح صوفيا بتجارب عاشها بنفسه أو سمع عنها من اعمامه واخواله كي لا تقع في نفس الأخطاء . اما اباه فقد حرم منه في سن مبكرة .

ومن بين النصائح التي كان ابا عبد الله يرددها لصوفيا : لا ترفضي طلب ضعيف ، لا تأكلي وجارك جائع ولا تثقي في الدنيا وفي الأشياء الجميلة فإن جمالها غالبا ما تكون مزيفة وانية . في بعض الأحيان كانت صوفيا تشاكس اباها

بحيث تكمل نصائحه بمجرد ان يبدأها لانها حفضتها عن ضهر قلب فكان يبتسم ابتسامة عريضة تعطي للونه الأسمر جمالا خاصا .

اكملت دراستها في كلية الطب لتناقش اطروحتها وتنال شهادتها كطبيبة. كان ذلك اليوم اعظم يوم عند أبي عبد الله . فقد حضر لذلك العرس جلبابا ابيض جديدا وحذاء ابيض وطربوش احمر مما اعطى لابي عبد الله مظهرا اكثر وقارا واحتراما وكانه من بورجوازية المجتمع وقد كان شعوره حينها كذلك . ليس لأنه صار غنيا بل صار ابا لطبيبة وهذا اغنى من مال الدنيا كلها .

كان وهو يتقبل التهاني من الأساتذة والحضور يشعر بالفخر وكأنه اباها الحقيقي . ولما لا وهو الذي انبت النخلة ورواها بالحنان حتى تثمر؟ ولما لا وهو الذي ضحى بعائلته من اجل يتيمة؟ ولما لا وهو الذي استبدل صلاة الفجر لينقذ طفلة من الهلاك بالبرد وتحدى الإمام الذي طرده من المسجد لأنه أنقذ لقيطة ؟

كان ذلك اليوم بالنسبة لأبي عبد الله كذلك اليوم الذي حج فيه الرسول (ص) حج الوداع .

استلمت الدكتورة صوفيا ديبلومها من العميد لتمده لأبيها بالتبني عبد الله ثم تركع وتقبل رجليه.

هنا لم يتمالك ابا عبد الله نفسه ويهوى على الأرض وعلى ركبتيه ليقول لها: يا بنتي انا لست.....

لم يكمل الجملة حتى وضعت يدها على فمه وهي تقبل رجليه وتكمل بلى يا أبي بلى .

فاي أب يستطيع أن يتحدى المجتمع والفقر والجهل لينبت انسانة مثلي ان لم يكن ابا شريفا صحراويا واسمه أبو عبد الله؟

واي بنت شريفة تستطيع أن تكون جاحدة لحب رجل قبل أن يتبناها و اسكنها في قلبه وسجله العائلي ولا تناديه بأبي؟

هنا وقف الجميع ليصفق والدمع قد بلل محياهم .

تقدم العميد ثم الأساتذة ليقبلوا يد ابا عبد الله الذي كان يردف الدمع ويحضن ابنته صوفيا وهو يردد : اللهم لك الحمد يا كريم.

اللهم لك الشكر يا سميع يا عليم.

وأمام الجميع وهو يحاول أن ينهض متكئا على بنته صوفيا وقع على الأرض مسلما الروح لخالقها والابتسامة العريضة مرسومة على وجهه .

اما الدكتورة صوفيا فكانت تبكي وتردد النصيحة التي كان اباها يعلمها اياها كل يوم ..

وفي آخر كلامها قالت: اللهم اشهد ان ابي عبد الله هو ابي وانني لم اشعر باليتم يوما وهو ابي .

محتوى الكتاب